البيان

في مداخل الشيطان

تأليف

عبد الحميد البلالي

قدّم له

محمد احمد الراشد

مؤسسة الرسالة

البيان

في مداخل الشيطان

الطبعة الأولى

١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

الطبعة السادسة

مراجعة ومنقحة

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

مؤسسة الرسالة بيروت – شارع سوريا – بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ – ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

تقديم

الاستاذ محمد احمد الراشد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد . . .

فإن القرآن الكريم قد أطنب في التحذير من عدوين لدودين : من الشيطان ، ومن بني إسرائيل ، فما من صفحة فيه إلاّ وفيها آية تكشف لك كيدهما أو كيد أحدهما ، وقد لا يلتفت المبتدي والعامي إلى مغزى هذا الاهتمام في القرآن بهذين الخطرين ، إلاّ أن الناظر في السيرة المطهرة ، المحلل لتاريخ الأمة ، المتأمل في التجارب الحاضرة ، الراصد لأسباب الضعف والخلاف : يدرك بوضوح أنهما وراء كل فتنة وشر ، وسبب كل تخذيل وتعويق .

فلا عجب أن يتصدى الوعاة لتقليد القرآن في منهج التحذير من هذين العدوين فيطيلوا النفس جيلاً بعد جيل في ترتيب الآي ، واستنباط معانيها ، وتكميلها بمثلها من كلام النبي صلى الله عليه وسلم أو أقوال معلمي الأمة ، من فقيه واقف على أسرار أعمال القلوب ، أو مؤرخ مكتشف لوثائق الإدانة وخفايا العلاقات .

بيد أن استقرار معاني الحذر من الشيطان في القلب يحتاج إلى إيمان عميق لا تحتاجه حقائق التاريخ ، وعلى الأخص أن هناك حاضراً مرئياً لبني إسرائيل

تقاس عليه سابقاتهم ، لكن الاخبار بوجود الشيطان أمر غيبي ، ويحتاج قلباً يؤمن بالغيب الذي تحدثت عنه عقيدة الإسلام ، ومن لم يملك هذا الإيمان بالغيب فهو عن إدراك طبيعة الخطر بمعزل ، وعن النجاة بعيد ، وقد يكون المرء مسلماً ، إلاّ أن تصديقه بالغيبيات ضعيف ، فتكون جفلته من الشيطان من ثم ضعيفة ، مثل هارب بخطو وئيد ، سرعان ما يدركه الطالب .

وما من شعبة من شعب الإيمان والإسلام يؤمن بها المسلم إلاّ وتبقى عليه بقية من أمر تمامها : أن يتفقه فيها ويعلم حدود حلالها وحرامها وما بينهما وسننها وآدابها .

ويصدق ذلك على الإيمان بوجود الشيطان ، وانه خلق الله وانه يجري من ابن آدم مجرى الدم : لا تكمل هذه الجزيئة العقائدية إلاّ بأن يتعلم المسلم تمييز أنواع كيده واستدراجه ، ويتقن فنون التملص من إغرائه .

فمن ثم كان هذا الكتاب الذي بادر إلى جمعه أخي البلالي ، حفظه الله ورعاه ، إذ انه أدرك حاجة المكتبة الإسلامية إلى بحث في هذه المعاني يقف عند النص القرآني وصحيح المأثور ، غير مشوب بأحاديث ضعيفة وموضوعة ، ولا بقصص وهمية خرافية أو بكلام جزاف ، فكان له التزام جيد بمنهج سليم تناول الموضوع من خلاله ، وأعانه على ذلك اعتماده على متابعة علماء من سلف الأمة ومحدثيها ممن عرفوا بصحة العقيدة ووفور التقوى ، فقد أصغى لابن الجوزي حتى وصف له تلبيس إبليس ، وسلك مدارجاً مهدها ابن القيم ، وزامل سيداً خلال رحلة تأملية في ظلال القرآن ، ثم آب لك راجعاً ، يقص عليك القصص ويخبر بما هنالك .

وكما أن المشروع الهندسي يعهده الناس إلى مهندس ، ثم يلتمسون وصف الدواء من طبيب ، فكذلك هذا الخبر الصادق ، وفق الله لتبليغه اليوم من نعرفه بشدة الاحتياط ، ولا نزكي على الله أحداً ، فكان في ألفاظه وضوح

ينبيك أنه لم يصدر في ذلك عن مجرد رغبة بحث وتكاثر بالصفحات ، بل هو جهد تربوي منه لإخوانه الدعاة ، يتفاعل هو وإياهم مع موضوعه كل يوم ، بل كل ساعة ، بل الموفق منهم ، المحترس اليقظ ، يفترض فيه ذلك كل لحظة.

وحسب أخي ويكفيه أنه قد فهم طبيعة التربية الإيمانية التي تلزم الدعاة وعرف النقص ، فبادر إلى محاولة الاستدراك ، بتجديد التذكير في ضرورة النجاة من إلقاءات الشيطان ، واضعاً أصحاب القلوب المنفتحة من إخوانه العاملين للإسلام ، التي لم تغلقها المعاصي والفتن ومحبة الدنيا ، في شغل كله خير محمود العواقب ، من زيادة الحذر ، ومحاسبة النفس ، وفصاحة الذكر ، وطول السجود .

فكتاب أخي ، هذا ، جزء نافع إن شاء الله من مجموع متطلبات الخطة التربوية للجماعات الإسلامية ، تلتذ خلال مطالعته بحماسته ، وبشفقته عليك ، وبحيوية النبرات الصادقة ، التذاذاً ينسيك أنواعاً من جمال الإنشاء والاسترسال البياني الجميل ، ومزيد مهارة في الصنعة التأليفية يحتاجها .

فقلم أخي في هذه المواعظ ما زال مبتدئاً ، لم يستطع محاكاة البلغاء ، لكن نصائحه جاءت في ذروة الصدق ، فهي من ثم حرية بالقبول ، وطالب الانتفاع لا يسمح للبطر العلمي أن يمنعه من الإصغاء للنصيحة البسيطة المتواضعة إذا كانت صادقة ، ومَن أبى إلاّ أن ينمق له الكلام فهو واهم ومثقل نفسه بنوع من الترف .

إن هذه المخاطبات دعوة إلى الانتباه والحذر ، وليست فتحاً لباب الوساوس فإن الإسراف في ذكر خواطر السوء ، والتفرغ لردها ، يشغل المسلم عن أصل عمله في التوجه لفعل المعروف ، وفي ذلك بعد وانحراف عن طريقة السلف الصالح ، بل الصواب أن يقذف المسلم نفسه في لجة العمل ، مجتهداً ، متحرياً صفاء النية وصواب الابتداء ، فيخرجه ذلك إلى استمرار تلقائي

وحصانة ذاتية ضد الوسوسة بسبب امتلاء النفس والجوارح بمقاصد الخير والخطو إليه ، دونما حيز فراغ فيهن تطرقه الخواطر الشيطانية أو تحتله ، فإذا بقيت من بعد بقية لهذه الوساوس فإن سعة آفاق الرجاء في قلب المؤمن تتكفل بتبديدها ، ولا يكمل الإيمان بمجرد خوف من رب جبار منتقم ، ومن عقابه وناره ، ومن شيطان خلقه وجعل كيده فتنة وامتحاناً للعالمين ، بل حتى يقابل ذلك رجاء أكبر وانتظار لطف من رب رحيم غفور ودود .

فالمهم في عمل أخي البلالي انه انطلق من حقيقة وجوب العلم بالشر وأسبابه ومتاهاته ، علماً موازياً لعلمنا بالخير وأسبابه وطريقه المستقيم ، ولذلك لم يكن لينتهي إلى نتيجة ابتداعية يميل معها إلى عزلة وسلبية تورط فيهما بعض المسلمين من قبل ، ولهم اليوم عقب وارث ، وإنما أخذ بيدك نحو إيجابية التوكل على الله تعالى للتغلب على تزيين الشيطان ، وشخصية أخي الكاتب تدلك على بعض سمات هذه الإيجابية ، إذ أنه درس الهندسة الكهربائية في جامعات بريطانيا ، وهو اليوم مهندس يؤدي دوره في العمران المدني للحياة ، كما أنه داعية ملتزم بموازين الإيمان يؤدي دوراً في البناء الحضاري الفكري العقائدي الأخلاقي للأمة ، يحرص معه على إبرائها من أمراض رآها تنخر كيان المجتمع الغربي الذي عاش فيه بضع سنين .

لكل ذلك فإني أحثّ شباب الدعوة الإسلامية على مطالعة هذا الكتاب ، وتدبر ما فيه من أوصاف الشبهات والشهوات التي يلزمهم تجنبها ، فإن المزالق كثيرة ، والإغواء قائم ، والتذكرة واجبة ، ومن انتهى فنفسه أنجى .

والله الهادي إلى صواب القول والعمل ، وبه نعوذ من همزات الشياطين .

محمد احمد الراشد

مقــدِّمَة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلاّ الله مالك السموات والأرض وما بينهما القادر على كل شيء قدير الباسط يديه بالليل ليتوب مسيء النهار وبالنهار ليتوب مسيء الليل [1] وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، بسببه انجلت الغشاوة عن الأعين والوقر عن الآذان وسطع نور الحق على القلوب التي كانت مغلقة فتفتحت به تفتح الأزهار عند الشروق ، جاب الأسواق شرقاً وغرباً عارضاً سلعته التي أوكله الله بعرضها للبشر ، صائحاً بهم «ألا ان سلعة الله غالية ألا ان سلعة الله الجنة » [2] « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعايه والنار مثل ذلك » [3] فأقبلت عليه فئتان من الناس الأولى آثرت الآخرة على الدنيا واشترتها فباعت نفسها ومالها لله ، فاخترقت البشارة تشقّ عباب الغيوم نازلة من العرش إليهم تبشرهم « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » وأما الفئة الأخرى فقد «اشتروا الضلالة بالهدى » فنزلت البشارة تخبرهم أنه سوف « لا يخفف عنهم العذاب ولا هم يُنصرون » .

---

(١) مسلم .
(٢) صحيح الجامع الصغير .
(٣) البخاري .

أما بعد فإن الله بعدما أخبر الملائكة قائلاً لهم : « إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون»[1] ولكي يثبت لهم بأن آدم يتميز بميزة عنهم « علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة»[2] فقال لهم وهو العايم بهم وبضعفهم وبخصائصهم « انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين»[3] ووقفوا أمام هذا السؤال مبهوتين فعرفوا ضعفهم وأنهم ليسوا بقادرين على الذي يقدر عليه هذا المخلوق الجديد فاعترفوا وقالوا « سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم » وبعدها « قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم اني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » ؟

وتكريماً لهذا المخلوق الجديد نادى الله بالملائكة وكان الأمر شاملاً للشيطان « اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » ويسأل الله جل جلاله الشيطان عن إبائه عن السجود قال له « ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك » فانبجست عيون الحقد والكبر من أغوار نفسه فرد على الله خالقه من عدم بكل جرأة « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » وهل يرضى الله أن ينازعه أحد في كبريائه وهو القائل على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم « العز إزاري والكبرياء ردائي فمن ينازعني في واحد منهما فقد عذبته » فقال له « اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين » ولكن هل يصمت عدو الله أمام هذا ويقف مكتوف الأيدي وآدم يتمتع هو وزوجه بالجنة « لا » فلا بد من الانتقام من ذلك المخلوق الذي كان سبباً في طرده .

وراح يسوسوس لهما لكي يزحزحهما عما كانا فيه وقام يدليهما رويداً

---

(١) البقرة ٣٠.

(٢) البقرة ٣١.

رويداً بغرور حتى وصل الدلو إلى القاع الذي يريد ، النتيجة أن عصيا أمر ربهما ، فناداهما ربهما « ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين » ؟ ولكن ماذا يفعلان بعد أن عصيا ربهما وما المصير الذي ينتظرهما ؟ ولم يكن أنسب من أن يعترفا بذنبهما ويطلبا من مولاهما العفو فقالا : « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

وقبل أن يأمرهم الله بالهبوط إلى الأرض قال عدو الله طالباً من الله أن يؤجله « انظرني إلى يوم يبعثون » ويطلب من الله النظرة إلى يوم البعث كي يكون أكبر وقت يستطيع فيه أن يجذب بني آدم بتزيينه ويرمي بهم في جهنم، فهو لا يرضى بوقت قصير يجذب به القليل إنما يدعوه حقده إلى أن يطلب من الله النظرة إلى يوم البعث فهو لا يرضى أن يكون لوحده بجهنم كما أنه لا يرضى بأن يكون مع عدد قليل بل لا بد من أمم تكون معه من سلالة عدوه الذي كان سبباً في طرده ولكن الله يرد عليه قائلاً : « إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم »[1] وما أن أذن له بالبقاء حتى قام يسرد على الله بكل وقاحة وحقد دون استحياء من الله ولا خوف خطته لإضلال البشرية قائلاً : « فبما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين »[2] إنه سيدخل على ابن آدم من كل مكان ومن كل اتجاه ليصهره في بوتقة الضلال . ويشاء الله أن يهبطوا منها جميعاً ويبدأ الصراع بين عدو الله وآدم ويعلنها عدو الله حرباً لا هوادة فيها ويضع عدة الحرب ويلبس لباس المعركة ولا ينزعه حتى اليوم المعلوم ، حرب شاملة تسير على خطة متشعبة ويقوم بتنفيذها جيوش الباطل في كل مكان بقيادة إبليس ، حرب الهدف منها إطفاء نور الله وإلقاء بني آدم في جهنم . وها هم الآلاف المؤلفة يتساقطون أمام مهام الشيطان ويخرّون في

---

(١) ص ٨٠.

(٢) الأعراف ١٦.

وحل الضلال ، وها هي جيوش الشيطان تسير وكل يوم ينضم إليها الكثير من بني آدم بسبب إحكام إبليس تنفيذ مخططه بالإغواء .

ويكشف الله مخططه الرهيب ويجلي خطة عدوه عالياً وتبدو واضحة لكل من أراد أن ينظر ، إنها مليئة بالمداخل: من أمر بالسوء بالتصور والفعل، وتخويف بفقر قاتل ، وتخويف بأولياء الباطل ، وإلقاء الأماني الكاذبة ، وإيقاع العداوة بين أفراد الأسرة الواحدة والمجتمع الواحد والأمة الواحدة ، والصدّ عن ذكر الله باليسر والعسر ، وتزيين الباطل في عيون أصحابه ، واستهواء يثقلهم للأرض ، وإيماء بجدل عقيم ، وتحريم لما أحل الله من الطعام واللباس والنســـاء ، وغرس لليأس من النصر ، وتفكيك للأسرة ، ونزغ بالعجب بـــالنفس والاستعلاء على الغير ، والاستفزاز بصوته القبيح ومشـــاركة بالأموال والأولاد وإلقاء الهمزات الخفية في نظرة بشهوة ، أو فكرة لا تعين على ذكر الله ، وغضب للنفس ، ونجوى بين اثنين ليحزن الذين آمنوا ، واستحواذ على النفوس بالشهوات ، ووسوسة تنقلك من عالم الخشوع إلى عالم النسيان . وغيرها قليل لا تحصيها ورقاتنا القليلة .

ولقد أوضح الله لعباده هذه المداخل كلها لتعينهم في حربهم مع عدوهم ، فأخذتّها فئة من الناس ودرستها دراسة وافية ووضعت الجيوش على جميع الثغور كي تصد كل هجمة من العدو وتحكم الحراسة للقلب لئلاّ يدنسه العدو الحاقد ، وفئة أخرى فتحت أبواب قلوبها على مصراعيها وغزت الشياطين قلوبها حتّى تحولت قلوبهم إلى معسكرات لجيوش الشيطان .

وتسير الجيوش ، جيوش الشيطان ، حتّى تصل إلى الغاية التي رسمها عدو الله ، وصلت إلى نهاية الطريق بعد أن سارت طيلة هذه الدنيا على هذا الكوكب الصغير ، ولكن أين الغاية ؟ أين المتعة ؟ أين أنا ؟

ها هي الغاية المضحكة والمبكية في آن واحد .

ها هي المتعة التي كنتم توعدون ، إنها آفة كبيرة فاتحة فاها متشوقة لتقبيلكم ومعانقتكم بعد فراق .

ها هي تخرج الزفير والشهيق شوقاً للقائكم « إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميز في الغيظ »[1] .

ويلكم أما ترونها « ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر » ؟

أما تسمعونها تصيح « هل من مزيد » ؟

ها هو معسكركم الكبير وقد اندلعت النيران فيه ، وهذا قائدكم العام ورؤساؤكم الـــذين اتبعتوهم وصفقتم لهم ونصرتموهم بالباطل ، جميعهم وصلوا إلى ما يريدون : « هذه النار التي كنتم بها تكذبون أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون . اصلوها فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون »[2] .

لقد انتهت الخطة التي وضعها القائد العام للقوات الضالة ، لقد انتهت الخطة التي وضعها للانتقام من هذا المخلوق وما أطوله من انتقام . . . وكانت جهنم وأهوالها هي نتيجة الاتباع . . .

ولم يترك الله ابن آدم هكذا سدى دون علاج ، فلقد وصفه له وأحسن الوصف في القرآن الكريم والسنّة لكي يستعين به في مواجهة هذا العدو وليكون سبباً في فوزه بسلعة الله . ورب سائل يسأل لماذا خلق الله إبليس وهو الذي يسبب ضلال الأفراد والجماعات بنشر الفساد في الأرض ؟ ؟ ومما لا شك فيه أن وراء كل خلق حكمة يعلمها الخالق جلت قدرته .

فمن حكم خلق إبليس أن تظهر قدرته تعالى على خلق المتضادات المتقابلات

(١) الملك ٧ ـ ٨.

(٢) الطور ١٥، ١٦.

فخلق ذات إبليس التي هي سبب كل شر في مقابلة ذات جبريل التي هي مادة كل خير ، تماماً كخلقه الليل والنهار والضياء والظلام والداء والدواء والحسن والقبيح والماء والنار والخير والشر وذلك من أول الدلائل على كمال قدرته وعزته ، فخلو الوجود من بعض هذه المتضادات بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير مملكته .

ومنها ظهور آثار أسمائه القهرية « كالمنتقم وشديد العقاب وسريع الحساب » فلا بد من وجود هذه الأسماء من سبب ، فلو كان كل الخلق على طبيعة الملك لم يظهر أثر هذه الأسماء .

ومنها ظهور أسمائه المتعلقة بالرحمة والحلم والعفو والمغفرة والستر ، فلولا خلق إبليس المسبب للمعاصي لما ظهرت آثار هذه الأسماء .

ومنها حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت ولكان الحاصل بعضها ، منها أحب العبوديات إلى الله وهي الجهاد فلو كان الناس كلهم طائعين ، لاختفت هذه العبودية وتوابعها من الموالاة فيه والمعاداة فيه والحب فيه والبغض فيه وبذل النفس والمال له والدعوة إليه . وغيرها حكم كثيرة ذكرها الإمام ابن القيم في كتابه مدارج السالكين(١) .

وبعد ذلك كله لا أدعي أن الله حذر عباده من إبليس وذكر لهم عاقبة اتباعه دون أن يذكر لهم العلاج ودون أن يقرن ذلك برحمته الواسعة ودون أن يرغبهم بالجهاد في سبيله وهو القائل « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم »(٢) وقال تعالى : « قل يا عبادي الذين

---

(١) مدارج السالكين ج٢ ، ص ١٩٤ .

(٢) الحديد ٢١ .

أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم»[1].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لما قضى الله عز وجل الخلق، كتب كتاب فهو عنده فوق العرش ان رحمتي غلبت غضبي».

وبعد فإنه لا يستطيع أي إنسان أن يحارب عدوه حتى يعرف من يحارب وما هي نقاط الضعف فيه وما هي خططه وأنواع أسلحته وكميتها، وجنوده وعددهم، ونقاط الضعف فيهم... حينها يكون طريق النصر سهل نجري به ولا نتعثر واثقين من نهايته فإما نصر وإما شهادة.

وللحصول على كل هذه المعلومات عن العدو بهذه الدقة استعنت بكتاب الله الكريم واستعنت بالسنّة المطهرة لتوضيح ما لم يكن واضحاً واستعنت كذلك بكتب بعض علماء السلف كالإمام أبو الفرج ابن الجوزي وشيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم واستعنت أيضاً ببعض التفاسير كتفسير ابن كثير وفي ظلال القرآن.

وبعد ذلك كله لا أبرىء نفسي من الخطأ والنقص والضعف، وقلبي متفتح إنشاء الله لكل نقد يستند إلى دليل شرعي من الكتاب والسنّة.

وأسأل الله أن يكون هذا العمل صحيحاً على ما جاء به الشرع خالصاً لوجهه الكريم وأن يكون نقياً من كل شائبة تعكر الإخلاص وأسأله تعالى الغفران على كل خطأ؛ والله المستعان والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الزمر ٥٣.

الفصل الأول

البـــدايـــة

١ – الاخبار بخلق جديد .

٢ – الأمر بالسجود .

٣ – عصيان الشيطان للأمر .

٤ – الطرد لإبليس .

٥ – طلب الإنظار .

٦ – تفاصيل الخطة .

٧ – الاستثناء للبعض .

٨ – إسكان آدم وزوجه الجنة .

٩ – التطبيق الأول للخطة .

١٠ – الهبوط إلى الأرض .

بسم الله الرحمن الرحيم

البداية :

وقصة البداية تتكرر كل يوم فيولد الكثير من الناس كما أن النهاية تتكرر كل يوم فيموت الكثير ، وهي النهاية التي تعني انقطاع عمل ابن آدم إلاّ من ثلاث : صدقة جارية أو علم يُنتفع به أو ولد صالح يدعو له.أما غير ذلك فينتهي بموته ، والنهاية الحقيقية للإنسان هي يوم القيامة حيث يجازيه الله بما عمل في الفترة الواقعة بين حياته وموته كما أخبر تعالى بقوله : « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا »[١] من ذلك يتبين أن البداية في حياة الإنسان هي مرحلة بالغة الأهمية لأنها المنطلق الذي ينطلق منه لتحقيق الهدف الذي خلق من أجله وهي عبادة الله « وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون[٢] » ولأهمية هذه المرحلة في حياة الإنسان لم يغفلها القرآن الكريم وظل يذكرها في كثير من المواضع ، تلك البداية هي بداية أول إنسان وقد سماه « آدم » وسبب الكثرة من ذكره كي نستخلص من تجربته التي خاضها مع عدوه إبليس للمنهج السليم الذي يعيننا على تحقيق غاية الخلق ، وكان ذكر هذه البداية مقسم إلى أقسام :

فذكر كيف تم الاخبار بخلق جديد وكيفية خلقه ، وأمره للملائكة بالسجود له ، وعصيان الشيطان للأمر ، ثم طرده للشيطان ، وطلب الشيطان النظرة ، ثم ذكر تفاصيل خطة إبليس لإغواء بني آدم ، واستثنائه لبعض بني

---

(١) الملك ٢ .
(٢) الذاريات ٥٦ .

آدم ممن يتصف ببعض الصفات ، كالعبودية لله ، والإخلاص ، ثم ذكر تكريم آدم وزوجه بإسكانهما بالجنة.وذكر التطبيق الأول لخطة الشيطان بإغواء آدم ، ثم ذكر أمره لآدم وزوجه وابليس بالهبوط الى الارض ، وتوبة آدم من المعصية وقبول الله لهـا ، ثم ابتدأت حياة آدم وبنيه على هـذا الكوكب لتطبيق الغرض الذي خلقهم الله من أجله ، فمن أفلح بتحقيق هذا الهدف وحارب عدوه الأول إبليس ومنعه أن يسيطر عليه فعاقبته الفوز ، ومن أخفق بتحقيق هـذا الهدف وسالم عدوه الأول إبليس وقبل بسيطرته عليه فعاقبته الخسارة .

الاخبار بخلق جديد

عندما شاءت الحكمة الإلهية أن تجعل على هذا الكوكب خليفة ليعبد الله قال الله للملائكة : « إني جاعل في الأرض خليفة »[1] ولكن لعدم علم الملائكة بأسرار الحكمة الإلهية وراء خلق هذا الخليفة « قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك »[2] فرد عليهم : « قال إني أعلم ما لا تعلمون »[3] ولكي يريهم أن هذا المخلوق الجديد يتميز عنهم بميزة المعرفة « علّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين »[4] وأمام هذا العرض وهذا السؤال اعترفوا بضعفهم أمام مولاهم وقالوا بخضوع وإجلال « سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم »[5] وعندها أمر آدم أن يريهم هذه الميزة التي يمتاز بها عنهم فقال له : « يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون »[6] وتكريماً لهذا المخلوق الجديد أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة بالسجود له .

(١و٢و٣) البقرة ٣٠ .
(٤) البقرة ٣١ .
(٥) البقرة ٣٢ .
(٦) البقرة ٣٣ .

الامر بالسجود للمخلوق الجديد

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين »[1] ويسجد الملائكة جميعاً إلاّ إبليس ويأبى أن يسجد للإنسان ويكرهه منذ تلك اللحظة حقداً منه واستكباراً . وآدم بعد لم يخض معه المعارك ولم يرفع بوجهه السلاح .

عصيان الشيطان الامر

وتبدأ أول جريمة للشيطان وهي عصيانه لأمر الرحمن وذلك بأن الملائكة جميعاً سجدوا وكان الشيطان ضمن أولئك المأمورين ولم يسجد فسأله الله قال: « ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك » ويرد عدو الله بتكبر وحقد قال : « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » والعجب بهذا الجواب أنه يقر ويعلم أن الله خالقه وخالق آدم ويعلم أن الله بيده الحياة والموت لذلك طلب منه في موضع آخر أن ينظره إلى يوم البعث ومن هنا يتضح أن العلم منفرد لا ينفع صاحبه شيئاً ما لم يكن مقروناً بالعمل وهذا الذي كان ينقص إبليس ولأجل ذلك غضب الله عليه وكتب عليه الصغار ولقد ملأ الله كتابه العزيز بالحث على العمل . فبشر العاملين أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار »[2] « والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة »[3] « والذين آمنوا وعملوا

---

(١) البقرة ٣٤ .
(٢) البقرة ٢٥ .
(٣) البقرة ٨٢ .

الصالحات طوبى لهم وحسن مآب »[1] بل وعدهم بأعلى منزلة بالجنة فقال : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً »[2] وكذلك وعدهم بالمغفرة والعفو عن أخطائهم « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم »[3] وكذلك وعدهم بالمغفرة والرزق الكريم معاً « فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم »[4] ووعدهم بالهداية « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم »[5] ووعدهم بالاستخلاف في الأرض « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم »[6] وحتى المعصية فميزانها عند الله واحدفإذا اقترنت بتوبة نصوح غفرها الله وبدلها بحسنة وأوجب له ما أوجب للعاملين إما إن لم تكن مقترنة بتوبة مع إصرار على المعصية كما فعل إبليس عندما سأله الله عز وجل « ما لك ألا تكون من الساجدين »[7] فأجابه إجابة المصر على معصيته « لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حماء مسنون »[8] وعندها يحق غضب الله وعقابه وبعد ذلك يتضح جلياً الفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس في ميزان الله .

فأما آدم فقد قرن معصيته بتوبة فتاب الله عليه « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه »[9] وأما معصية إبليس فلم تكن مقترنة بتوبة وإنما قرنها بإصرار على المعصية مما أوجب غضب الله عليه وطرده من رحمته التي وسعت كل شيء.

---

(١) الرعد ٢٩ .
(٢) الكهف ١٠٧ .
(٣) المائدة ٩ .
(٤) الحج ٥٠ .
(٥) يونس ٩ .
(٦) النور ٥٥ .
(٧و٨) الحجر ٣٢ ، ٣٣ .
(٩) البقرة ٣٧ .

الطرد لابليس

إن الكبرياء إحدى صفات الله التي لا يرضى أن ينازعه فيها أحد فإن نازعه فيها أحد فإنه يعذبه سواء في الدنيا أو في الآخرة ، وأول من نازعه فيها هو إبليس بعد أن عصى أمره بالسجود لآدم معللاً ذلك بأنه خير منه ، فما كان من الخالق إلا أن قال له « اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين »[1] .

« لقد طرد من الجنة وطرد من رحمة الله وحقت عليه اللعنة وكتب عليه الصغار ولكن الشرير العنيد لا ينسى أن آدم هو سبب الطرد والغضب ولا يستسلم لمصيره البائس دون أن ينتقم ثم ليؤدي وظيفته وفق طبيعة الشر التي تمخضت فيه »[2] .

طلب الانظار

ويضع عدو الله التخطيط الأول للانتقام من هذا الإنسان ، فهو لا يرضى أن يكون لوحده في جهنم دون عدوه الذي كان سبباً في طرده ، هنا يطلب من الخالق أن يؤجله إلى يوم البعث كي ينجو من الموت لأنه لا موت في يوم البعث « قال أنظرني إلى يوم يبعثون »[3] ويرد الله عليه ليس كما طلب إلى يوم البعث ولكن إلى يوم الوقت المعلوم وهو يوم القيامة « قال فإنك من

---

(١) الاعراف ١٣ .
(٢) الظلال ج ٣ ص ١٢٦٦ .
(٣) الاعراف ١٤ .

المنظَرين إلى يوم الوقت المعلوم »[1] وما أن أذن له الله بالبقاء حتى قام يسرد على الله بكل وقاحة ودون استحياء منه ولا خوف خطته لإضلال البشرية .

تفاصيل الخطة

لقد أخبر الله تعالى عن مادة خلق الشيطان فقال : « والجانّ خلقناه من قبل من نار السموم »[2] ولهذه النار خصائص من أبرزها :

أ ـ الكبر :

« لقد قرر القرآن الكريم من هذه الصفات : الكبر وهو وصف يرى في نزوع النار إلى الاستطالة والاستعلاء وإرادة الارتفاع وانا لنقرأ في القصة الكريمة أن الشيطان حضره ذلك الطبع حين أمر بالسجود لآدم فأبى أن يكون مع السّاجدين فطرده الله من رحمته » .

« قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها »[3] فأراحنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ محضه لنا وأعلن حقيقته سوية واضحة : « الكبر بطر الحق وغمط الناس »[4] .

وبطر الحق : رده وعدم الإذعان له .

وغمط الناس ، ازدراؤهم وانتقاص أقدارهم وحقوقهم ـ وكلتا شعبتا الكبر بارزتان في قصة امتناع إبليس من السجود لآدم « قال ما منعك ألا تسجد

---

(١) الحجر ٣٧ ، ٣٨ .
(٢) الحجر ٢٧
(٣) الاعراف ١٣ .
(٤) مسلم والترمذي ـ كتاب الايمان .

إذ أمرتك ؟ قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين »[1] فقد توجه أمر الله إليه بالسجود ولكنه رد هذا الحق ورفض الإذعان له معاناً فضله على آدم واحتقاره لشأنه « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » .

ب ـ العجلة والغضب :

ومن صفات النار التي يمكن إسنادها إلى الشيطان كذلك ما ذكره القرطبي في تفسيره قال : قال الحكماء « ومن جوهر النار الخفة والطيش والحدة والاضطراب » وهي صفات يمكن استنباطها بمجرد المشاهدة والمراس ويجمعها لك معنى العجلة والغضب ، ويستأنس لها بما رواه أبو يعلى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « التأني من الله والعجلة من الشيطان »[2] والتأني ليس معناه البطء والتسويف عن مبادرة الخير إنما هو النظرة الفاحصة البعيدة التي تريك مقدمات كل أمر ونتائجه وأوائله وأواخره ، بحيث لا تسرع بإنفاذ أمر من الأمور أو رده إلاّ بعد أن ترى ما له من عواقب .

أما العجلة فهي قصور النظر وسقوط الهمة عن التعلق بالغايات البعيدة العالية ، اكتفاء بما يبدو من وجه الأمر وظاهره لأول وهلة ، ولعل المتأمل في قصة امتناع إبليس عن السجود لآدم يرى أثر العجلة والغضب في عصيانه أمر الله .

فإن طبع الكبر ما كاد يحضره ويتحرك في نفسه حتى حضره طبع الطيش والخفة ، فجعل إلى اتخاذ هذا الموقف من الله دون أن يجد في طبعه مسكة من الحلم والروية وأعماه غضبه الذي سارع إليه عن أن يرى عاقبة أمره وينظر فيما يحل به وهو الذي يعرف من قهر الله وبطشه ما يعرف .

---

(١) الاعراف ١٢ .
(٢) صحيح الجامع الصغير .

جـ - الإحراق والإتلاف :

ولقد شبه القرآن الكريم ما يحدثه الإيمان في قلوب المؤمنين بأنه « جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل » وعقب على ذكر تلك الجنة بما يفعل الشيطان في إتلافها فقال : « أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب » إلى « فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون »[1] . ولعل مما يؤنس إيمانك في هذا المقام أن نسوق لك ما جاء في صحيح البخاري متعلقاً بهذا المعنى : « قال عمر رضي الله عنه يوماً لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : فيم ترون هذه الآية نزلت « أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل » قالوا : الله أعلم . فغضب عمر وقال : قولوا نعلم أو لا نعلم . فقال ابن عباس في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين فقال عمر : قل يا ابن عباس : لعمل رجل عمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أحرق عمله »[2] .

وانطلاقاً من هذه الخصائص التي خلق منها إبليس صاح مخاطباً خالقه : « فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم »[3] وكأنه يصر إصراراً شديداً ممزوجاً بتلك الخصائص متبيناً في كلمة « لأقعدن » وكأنه قاطع طريق يقف في وسطه يمنع القوافل وعابري السبيل من المرور في هذا الطريق . ولقد وزع جيوشه بانتظام في هذا الطريق كل حسب تخصصه ووزع عليهم العصابات ليعصبوا بها أعين المارة .

ثم يمضي ليستمر بنفس الأسلوب في سرد خطته ، وبنفس الشدة والإصرار التي ذكرها في « لأقعدن » يقولها مرة أخرى مصمماً « ثم لآتينهم من بين

---

(١) البقرة ٢٦٥ ، ٢٦٦ .
(٢) آدم - الخولي ص ٩١ - ٩٩ .
(٣) الاعراف ١٦ .

أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم »[1] ويكمل أنه سيأتي للذين يحاولون اجتياز ذلك الطريق من أمامهم ويصدهم عن اجتيازه بكل ما يملك من سلاح ومن خلفهم وعن شمائلهم وأيمانهم . انها لحرب ضروس تلك التي يقيد بها الإنسان من كل اتجاه ويهدد بشتى أنواع الأسلحة ، ثم يقول : «ولا تجد أكثرهم شاكرين»[2] أي بسبب تلك القيود والعصابات التي عصبت بها أعينهم عن الحق سوف تجد أكثر الناس يشكرون ، ولقد أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك القعود بقوله : « إن الشيطان قعد لابن آدم بطرق فقعد له بطريق الإسلام فقال : اتسلم وتترك دينك ودين آبائك فعصاه وأسلم ثم قعد له بطريق الهجرة فقال أتهاجر ، أتدع أرضك وسماءك ؟ فعصاه وهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد فقال اتجاهد وهو تلف النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح نساؤك ويقسّم مالك فعصاه وجاهد »[3] . . . هكذا دائماً يقعد في كل طريق يسلكه ابن آدم ويهدده بأنواع الأسلحة التي لم يعهدها ابن آدم فإن كان ضعيفاً استسلم لهذه الأقاويل ووقع أسيراً لإبليس يصب عليه أنواعاً من العذاب يجعله لا يعرف الطريق الصحيح الموصل للنهاية الآمنة التي رسمها الله لعباده . وأما إن كان قوياً بنور الله يأبى أن تعصب عيناه بتلك العصابات ويمزقها ويمضي قدماً لا يستسلم لتهديدات إبليس بل يشق صفوف جند إبليس بسهولة ويسر ويسلك طريق الحق حتى يصل إلى النهاية الآمنة التي وعدها الله عبـاده المخلصين .

ويمضي في سرد خطته بتحليل أدق وبتفاصيل أكثر فيقول : « رب بمـا أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين »[4] .

لقد قسم خطته إلى قسمين ، التزيين ، ثم الغواية والتي هي نتيجة طبيعية

---

(١) الاعراف ١٧ .
(٢) الاعراف ١٨ .
(٣) صحيح الجامع الصغير ، ص ٨٩ .
(٤) الحجر ٣٩ .

للقسم الأول. والتزيين (يعني التزييف) وهو إظهار الشيء بصورة تختلف عن صورته الحقيقية، ولقد غرس هذه الخطة الرهيبة في الأرض وجنى منها وما زال يجني من ثمارها الشيء الكثير فزين للراقصة والمغني والمتبرجة والزانية سوء عملهم باسم الفن، وزين لكثير من العباد سوء عبادتهم وظنوا أنهم وصلوا إلى الله، وزين لكثير من الشعوب بعض عاداتهم وتقاليدهم التي تكون غالباً معارضة للإسلام وهديه، وكم زين لكثير من دارسي العلوم فصاروا يحاربون الله بعلومهم وزين لكثير من الحكام القوانين الوضعية والحلول المستوردة التي وضعها الإنسان بدلاً من قانون الله، ولقد وصل تزيينه لهم إلى حد أنهم قالوا أخيراً: أنه لا بد من ترقيع قوانيننا بشريعة الإسلام ولكن بطريقة عصرية، وتزيينه هذا كثير جداً لا تسعه هذه الصفحات.

والتزيين في كل شيء تحويله من قبيح إلى جميل، براق جذاب كحفرة عميقة غطيت بأجمل الزهور وأحيطت باللآلىء والزمرد ورشت عليها العطور، وما أن تأتي الفريسة المسكينة لتنخدع بهذا الجمال الفاتن حتى تطير الزهور من الحفرة وتقتلع اللآلىء من أماكنها وتفوح رائحتها النتنة التي تغطي رائحة العطر المرشوش وتظهر الحفرة العميقة وتقع تلك الفريسة المسكينة التي أغراها الجمال الزائف والتزيين، لتقع في تلك الحفرة وتهوي بها وتظل تهوي فإما أن ترفعها توبة إلى الله خارج الحفرة المظلمة إلى أعلى لتلتصق بتلك الأنوار، أنوار الهداية الربانية، وإما أن تهوي حتى تصل إلى القاع.

وبعد ذلك تأتي المرحلة الثانية من هذا المخطط الذي هو الإغواء عن الحق وهي النتيجة الطبيعية لضحايا التزيين ـ المضلل عن الحق حتى ولو كان الحق قريباً منهم بمنزلة اليد من الجسد كما قال الله تعالى: «أو كظلمات في بحر لجيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض

إذا أخرج يده لم يكد يراها»[1] وأنى له أن يراها وهو في هذا الظلام المتراكم، فلقد ألف الواقعين بتلك الحفرة الروائح النتنة والظلام فأصبحوا لا يحبون النور لأنهم رأوا بصيصاً من نور وقد غطوا أعينهم بأكفهم أو بما يملكون، ثم حولوا إلى قطعة من ظلام دامس، ويظل الصياد الكبير يحوم حول الحفرة يرمي بتزيينه آلافاً وملايين بتلك الحفرة الظلماء، ولا ينتهي إلى هذا الحد ولا ترده عظمة الله وهو واقف أمامه والملائكة خاضعون له، لا يصده كل ذلك عن إكمال سرد مخططه وهو يقول: «أرأيتك هذا الذي كرَّمت عليَّ لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته»[2].

إنه يتوعد ويهدد بني آدم من الاستيلاء عليهم واستذلالهم ولكن هل يستطيع أن يستذل كل بني آدم ويستولي عليهم ؟ وهل ذلك ضمن سنّة الله ؟ وهل للإنسان إرادة وعقل يميز بين الحق والباطل ؟ وإذا كان الجواب بنعم كما أخبرنا الله بكتابه بأن للإنسان عقل يميز بين الحق والباطل وأن له إرادة يستطيع بها أن يبتعد عن طريق الباطل ويسلك طريق الحق «ونفس وما سوّاها فألهمها فجورهـا وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها »[3]. وقال : « وهديناه النجدين » [4] أي الطريقين . بعد ذلك كله يكون من سنّة الله في الحياة الدنيا وجود فريقين على هذا الكوكب فريق الحق وفريق الضلال وهكذا لا بد من الاستثناء .

---

(١) النور ٤٠ .
(٢) الاسراء ٦٢ .
(٣) الشمس ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ .
(٤) البلد ١٠ .

الاستثناء للبعض

ويأتي في عرض خطته فقرات استثناء لفئة من بني آدم فلقد قال : «لأحتنكن ذريته إلّا قليلاً» هذه الفئة القليلة لا تستطيع تلك الآفة مضغها ولئن مضغتها ستتكسر أنيابها وتتفتت مقاطعها فهي من طبيعتها لا تحب أن تقربها لأنهم لا تمضغ.

من هؤلاء الذين استثناهم عدو الله من الاحتناك في خطته؟ عباد الرحمن، الذين يسبحون ببحر الحق وسوف لا يغرقون أبداً، إنهم جند الله فكيف يغلبون؟

وهل الله يتركهم وهو الذي أعطى الشيطان ما سأل، وهو عدوه فكيف بمن يحبه؟ لقد تضاءل الشيطان أمام إيمانهم وأصبحت خطته مع عظمتها وخطورتها ضعيفة أمام جدار الإيمان الشامخ الملتصق بالسماء وها هو يقول: «الا عبادك منهم المخلصين»[1] فالإخلاص هو السبب المباشر في الاستثناء والإخلاص لله وحده دون إشراك أي شيء مهما كان ضئيلاً معه من هوى ونفس وزوج وولد ومال هذا الإخلاص هو الزاد المفيد لذلك السفر، وهو الدرع الواقي لهجمات إبليس.

وجاء بعد أمر السجود لآدم تكريماً آخر وهو إسكان آدم وزوجه بالجنة ولكن ما مصير الشيطان وماذا سيفعل آدم وزوجه أمام هذه التجربة الجديدة ؟

---

(١) الحجر ٤٠.

اسكان آدم وزوجه الجنة

ويدخل آدم مرحلة جديدة في حياته بعد أن قال له عز وجل: «يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين »[1] .

« لقد أبيحت لهما ثمار الجنة إلاّ شجرة واحدة ، ربما كانت ترمز للمحظور الذي لا بد منه في حياة الأرض. فبغير محظور لا تنبت الإرادة ولا يتميز المريد من الحيوان المسوق ولا يمتحن صبر الإنسان على الوفاء بالعهد والتقيد بالشرط فالإرادة هي مفرق الطريق . والذين يستمتعون بلا إرادة هم من عالم البهائم ولو كانوا في شكل الآدميين»[2] .

التطبيق الأول للخطة

وبينما آدم وزوجه بالجنة إذ أعلن عدو الله الحرب على هذا المخلوق الجديد بعد أن انتهى من وضع المخطط . فتقلد سيف الحقد وركب جواد الكبر ورفع راية الحرب وانطلق متجهاً حيث يقطن آدم وزوجه ودخل عليهما ليكون حائلاً دون استمتاعهما بذلك النعيم ، ووجهاً لوجه اندلعت الحرب وانتصر عدو الله في أول معركة له مع المخلوق الجديد « فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه »[3] . ولقد طبق الخطة تطبيقاً دقيقاً واستخدم سلاحاً

---

(١) البقرة ٣٥ .
(٢) الظلال ج ١ ص ٥٨ .
(٣) البقرة ٣٦ .

لم يعهده آدم من قبل فلقد وسوس لهما « ليبدي ما ووري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين. وقاسمهما أني لكما من الناصحين »[1] .

« وهكذا وسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وهذا كان هدفه ، لقد كانت لهما سوآت ولكنها كانت مواراة عنهما لا يريانها ولكنه لم يكشف لهما هدفه بطبيعة الحال إنما جاءهما من ناحية رغائبهما « وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » لذلك داعب رغائب الإنسان الكامنة .

انه يحب أن يكون خالداً لا يموت ومعمراً أجلاً طويلاً كالخلود ، ويحب أن يكون له ملك محدد بالعمر القصير المحدد وفي قراءة (ملكين) بكسر اللام وهذه القراءة يعضدها النص الآخر في سورة طه :

« هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » وفي هذه القراءة يكون الإغراء بالملك الخالد والعمر الخالد. وفي قراءة (ملكين) بفتح اللام يكون الإغراء بالخلاص من قيود الحسد كالملائكة مع الخلود ولكن القراءة الأولى وإن لم تكن هي المشهورة أكثر اتفاقاً مع النص القرآني الآخر ومع اتجاه الكيد الشيطاني وفق شهوات الإنسان الأصيلة - ولما كان - اللعين - يعلم أن الله قد نهاهما عن هذه الشجرة وأن هذا النهي له ثقله في نفسيهما وقوته فقد استعان على زعزعته — إلى جانب مداعبة شهواتهما — بتأمينهما في هذه الناحية فحلف لهما بالله أنه لهما ناصح وفي نصحه صادق «وقاسمهما أني لكما لمن الناصحين»[2]

---

(١) الاعراف ٢٠ ، ٢١ .
(٢) في ظلال القرآن ج ٣ ص ١٢٦٨ .

ونلاحظ من النص القرآني أنه بدأ معهما الوسوسة ليبدي ما ووري عنهما من سوآتهما وكأن الحياة هي الحائل الأول الذي يقف أمام معصية الله فعمل على إزالته أولاً ثم توغل بتطبيق خطته بأناة ويسر والله أعلم .

وما زال يتابع تطبيق خطته « فدلاهما بغرور »[1] .

ودلى في اللغة معناها « دلى الدلو – أرسلها في البئر » فكأن الشيطان اللعين وضع آدم وزوجه بالدلو وقام بإنزال الدلو رويداً رويداً حتى أوقعهما فيما يريد من الباطل والكذب وبنفس الأسلوب ونفس الخطة التي لم تتغير منذ أن كذب على آدم إلى الآن ـ لا زال يستخدم أسلوب التدلية حتى الإيقاع بالقاع.

وقال الله تعالى للملائكة: « إني جاعل في الأرض خليفة» وخلق آدم فآدم مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى . ففيم إذن كانت تلك الشجرة المحرمة ؟ وفيم إذن كان بلاء آدم ؟ وفيم إذن كان الهبوط إلى الأرض وهو مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى ؟

لعلني ألمح أن في هذه التجربة تربية لهذه الخليقة وإعداداً لها. وإيقاظاً للقوى المذخورة في كيانها. إنها كانت تدريباً لها على تلقي الغواية وتذوق العاقبة وتجرع الندامة ومعرفة العدو والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين»[2].

---

(١) الاعراف ٢٢ .

(٢) الظلال ج ١ ص ٥٩ .

الهبوط الى الأرض

ويأتي نداء الحق جلت قدرته عتاباً لهما على ما فعلا بعد أن حذرهما من عدوهما بأنه ظاهر العداوة معهما ومع هذا التحذير فعلا ما فعلا « وناداهما ربهما : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين »[1] ولكن ماذا يصنعان بعد أن عصيا ربهما وما المصير الذي ينتظرهما ؟ لم يكن أنسب من أن يعترفا لمولاهما بذنبهما ويسألانه العفو فقالا : « ربنا ظلمنا انفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »[2] لقد كانت لهما فرصة . . . فرصة الاستغفار والرجوع في وقت لم تقم به الساعة ولم يكونا بعد في سكرات الموت . . . ولم يمض وقت طويل حتى أجابهما الله على سؤالهما وتاب عليهما « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم »[3] وبعد ذلك جاء أمر الله بالهبوط إلى الأرض حيث بدأت المعركة بين الحق والباطل « قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين »[4] وقال : « فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » لقد انتهت التجربة الأولى لآدم وزوجه والشيطان في السماء وابتدأت على هذا الكوكب الذي خلق منه الإنسان ، وابتدأ الصراع مرة أخرى بين المخلوق الجديد الذي استعد لعدوه بعد تعرفه على خصائصه ونقاط ضعفه واستعد أيضاً عدوه له للبحث عن نقاط ضعف جديدة وليدليه في البئر تارة أخرى وإن لم يكن هو فالخطة قابلة للتطبيق على نسله .

---

(١) الاعراف ٢٢ .
(٢) الاعراف ٢٣ .
(٣) البقرة ٣٧ .
(٤) الاعراف ٢٤ ، ٢٥ .

ولن ينتصر هذا الإنسان أبداً على هذا العدو الغريب في طباعه وشره إلاّ إذا تمسَّك بالذي هو أقوى منه وهو الحق تعالى .

ولقد وضع الله تعالى المنهج الكامل لمجابهة هذا العدو وهو القرآن الكريم والسنّة المطهرة فمن تمسك بهمـا واتبع هـداهما فقـد انتصر ونجـا من جهنم ومن ابتعـد عنه فليكونن من الخاسرين « فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »[1] .

---

(١) البقرة ٣٨ ، ٣٩ .

الفصل الثاني

التّحذير

١ – العبودية .

٢ – ينزع عنهما لباسهما .

٣ – الولاء .

٤ – اتباع الشيطان .

٥ – لا يصدنكم .

٦ – دعوة إلى السعير .

التحذير

العدل اسم من أسماء الله تعالى فبما يقتضيه هذا الاسم أن الخالق عز وجل أرسل الرسل وأنزل الكتب ليحذر الناس من عدوهم الأول إبليس وحتى تكون الرسل والكتب حجة على الناس يوم القيامة فإن الله لا يعذب حتى يرسل الرسل ليبلغوا رسالة ربهم « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » (١) ومن أهم ما حذرهم منه ، عبادة الشيطان واتخاذه ولياً من دونه ، وذلك لأن المعاصي كلها تنبع من عبادة الشيطان فإذا أزيلت هذه العبودية من قلب إنسان صار قلبه متفتحاً لعبادة الله وحده .

وأكثر التحذيرات بالقرآن إن لم تكن جميعها مشتقة من « التحذير من عبادة الشيطان » كالتحذير من العري ومن موالاة الشيطان ومن اتباعه ومن صد الشيطان ، ويتبيـن ذلك عندما نعرف معنى العبودية .

العبودية

والعبودية لله أي الخضوع له والطاعة « يقال يدين الله ويدين لله أي يعبد الله ويطيعه ويخضع له ، فدين الله : عبادته وطاعته والخضوع له . والعبادة أصل معناها الذل أيضاً : يقال طريق معبد إذا كان مذللاً قد وطئته الأقدام » (٢)

(١) الاسراء ١٥ .
(٢) العبودية ، ص ٤٣ .

وأول من تلقى التحذير من البشر آدم عليه السلام، ذلك عندما نهاه الله هو وزوجه عن الأكل من تلك الشجرة وحينما أخبره الله بأن الشيطان لهما عدو مبين « ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين »[1] « ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين »[2] .

وآدم أيضاً هو أول من عبد الله من البشر وذلك عندما ندم على معصيته وتلقى من الله كلمات توبته « وتاب بقيله إياها وعمله بها إلى الله من خطيئته ، معترفاً بذنبه متنصلاً إلى ربه من خطيئته ، نادماً على ما سلف منه من خلاف أمر ربه فتاب الله عليه بقبوله الكلمات التي تلقا منه، وندمه على سالف الذنب منه، والذي يدل عليه كتاب الله، أن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه، الكلمات التي أخبر الله بها عنه أنه قالها متنصلاً بقيلها إلى ربه معترفاً بذنبه وهو قولـه: «ربنا ظلمنـا أنفسنا وإن لم تغفـر لنا وتـرحمنا لنكـونن من الخاسرين»[3] وقد صد الله تعالى أبناء آدم عن عبادة الشيطان ودعاهم لعبادته فقال:

« ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين. وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم. ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون »[4] .

ومن الآيات يتضح قوله تعالى «ألا تعبدوا الشيطان» أي لا تطيعوه ولا تذلوا له فإنه لكم عدو مبين، والإنسان متى تخلى عن عبادة الله وابتعد عنها فلا بد أن هناك نفحات من الكبر دفعته لذلك، وكذلك فإنه لا بد أنه قد اختار ما يعبد سوى الله ويبتعد عن كل صنم أو عبد أو شهوة وبذلك يكون

---

(١) البقرة ٣٥ .
(٢) الاعراف ٢٢ .
(٣) تفسير الطبري ، ج ١ ص ٥٤٦ .
(٤) يس ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ .

قد أشرك بالله. ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية الذي تربى على هذه المعاني وغمس قلبه فيها فقام ينادي بها لا يخاف في الله لومة لائم ولا غضب سلطان، لقد عُذبَ عذاباً شديداً بسببها ومات وقلبه عامر بها ومما قاله في ذلك المعنى «فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته بل استكبر عن ذلك فلا بد أن يكون له مراد محبوب، يستعبده ويستذله غير الله، فيكون عبداً ذليلاً لذلك المراد المحبوب: إما المال وإما الجاه وإما الصور وإما ما يتخذه إلهاً من دون الله كالشمس والقمر والكواكب والأوثان وقبور الأنبياء والصالحين والملائكة والأولياء الذين يتخذهم أرباباً وغير ذلك مما عبد من دون الله»[1].

وهؤلاء الذين اتخذوا آلهة من دون الله يعبدونها ، كأنهم كبلوا أنفسهم وأذلوها ومنعوها الحرية ظانين أنهم كلما ابتعدوا عن منهج الله فإنهم يبتعدون عن قيود الدين وبذلك يكونوا قد أخذوا الحرية كاملة ، وما دروا أنهم وقعوا أسرى في عبودية الشيطان .

وما أجمل ما قاله شيخ الإسلام في تعريفه لمعنى الحرية « الحرية حرية القلب والعبودية عبودية القلب كما أن الغنى غنى النفس . قال النبي صلى الله عليه وسلم : ليس الغنى في كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس »[2] .

وعندما يصل الإنسان إلى مرتبة قيادة النفس إلى ما أمر الله ومعاندتها فيما ترغب مما نهى الله عنه يكون هو سيد نفسه ، وحقّ على العبد أن يطيع سيده ويكون هو المعنى الصحيح للحرية الذي أدركه شيخ الإسلام وقام يردده عندما أمر بسجنه بقلعة دمشق ملقناً الأعداء دروساً بمعنى الحرية الصحيحة قائلاً : « ما يصنع أعدائي بي ، ان جنتي وبستاني في صدري أين رحت فهي معي لا تفارقني ، وإن حبسي خلوة ، وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي

---

(١) العبودية ، ص ١١٢ .
(٢) العبودية ، ص ٩٧ ــ الحديث رواه الشيخان .

سياحة »[1] ولم ينسَ الشيخ أن يعلّم هذه المعاني لأتباعه الذين سجنوا معه في القلعة فربما تسرب الخوف إلى بعضهم كما ذكر الإمام ابن القيم الذي كان أحدهم قال : « وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلاّ أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله فينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة »[2] وكان مما يقوله لهم أيضاً : « المحبوس من حبس قلبه عن ربه والمأسور من أسره هواه »[3] .

ورغم البعد الزمني الذي بين شيخ الإسلام ابن تيمية وصاحب الظلال سيد قطب إلاّ أن تعريفهما للحرية جاء متشابهاً ، عندما جاشت المشاعر في قلب سيد وهو في السجن مع إخوانه الذين ربما ظن أحدهم أنه مقيد عن الحرية فأراد أن يعرِّفه معنى الحرية فأنشد يقول مخاطباً له :

أخي أنت حرٌّ وراء السدود   أخي أنت حرّ بتلك القيود
إذا كنت بالله مستعصماً   فماذا يضيرك كيد العبيد

وكأنما أراد « سيد » أن يعلم أخاه بأن السدود والقيود لا تمنع الحرية إذا كان القلب حراً فيما يختار .

نعم يا أخي أنت حر حتى ولو كنت وراء قضبان السجون .

نعم يا أخي أنت حر حتى ولو طوّقت معصميك القيود ،

ولتقيد معصميك وقدميك ولكن تبقى مع ذلك حراً لأنهم لم يستطيعوا تقييد قلبك فدعهم فماذا يضيرك كيد العبيد ؟

---

(١) حياة شيخ الاسلام ـ للبيطار ، ص ٢٦ .
(٢) حياة شيخ الاسلام ـ للبيطار ، ص ٢٧ .
(٣) حياة شيخ الاسلام ـ للبيطار ، ص ٢٦ .

« وشرط العبودية الحب ثم الخضوع والطاعة والذل لمن أحب فإذا اكتملت هذه الشروط في شخص ما تجاه شيء ما يسمى عابداً لذلك الشيء» وكلما زاد القلب حباً لشيء ما فلا بد أن يأتي الشرط الآخر كنتيجة طبيعية للشرط الأول ذلك لأن من يحب فإنه يطيع محبوبه ، فالذي يحب المعصية يكون عبداً لشهوته ، متى ما دعته لعمل تلك المعصية يطيعها مهما كانت الظروف ـ والذين اختاروا الشيطان مولى لهم ، يحذرهم الله من عبادته ويقول لهم : « ولقد أضل منكم جبِلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون »[1] لقد اتخذ من كانوا قبلكم الشيطان مولىً لهم فأطاعوه واستكبروا عن عبادة الله فأخذهم الله بعذاب أليم فمنهم من خسف بهم الأرض ومنهم من صعق ومنهم من أرسل عليهم حجارة من نار « أفلم تكونوا تعقلون » .

وها هو عدو الله سائراً في خطته لإضلال البشرية وتحويلهم من عبادة الله إلى عبادته وعندما يتحول الإنسان عبداً للمعصية فلا بد أنه قد أحبها وإن أحبها حشر معها وذلك ما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما جاءه رجل يسأله عن الساعة فقال له : « وما أعددت للساعة » قال : حب الله ورسوله ، قال : « فإنك مع من أحببت »[2] .

وكذلك ما ذكره بعض المفسرين في الآية الكريمة «وإذا النفوس زوّجت»[3] وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما سئل عن قوله تعالى «وإذا النفوس زوجت» أجاب: يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة وبين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار[4].

فلذلك جاء التحذير من الخالق جل وعلا من عبادة الشيطان لأنه من عبد الشيطان حشر معه فبئس القرين .

---

(١) يس ٦٢ .
(٢) صحيح مسلم .
(٣) التكوير ٧ .
(٤) الطبري ، ج ٣ ص ٤٤ ـ بيروت .

ومن أخطر آثار عبادة الشيطان ذهاب الحياء ، وخطورة هذا الأثر تكمن في أن « الحياء هو الحائل بين الإقدام على المعصية والإمساك عنها وأنه كالسد إذا تحطم انهمر الماء يغرق كل شيء ، فالذي لا حياء له لا سد عنده » فهذا لا يمنعه مانع من الإقدام على المعصية ليفعلها ولا يرى بها بأساً وذلك ما روى في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت »[(١)] .

« وعلى هذا مدار الإسلام وتوجيه ذلك أن المأمور به الواجب والمندوب يستحي من تركه والمنهى عنه الحرام والمكروه يستحي من فعله وأما المباح فالحياء من فعله جائز »[(٢)] .

وعلى هذا فإن الحياء الذي يكون حائلاً دون الوقوع بالمعصية هو الحياء النابع من خشية الله ، لذلك كله عمد إبليس على تحطيم ذلك الحاجز الذي يمنع من الوقوع في المعصية بنزع اللباس الذي كان يواري آدم وزوجه ليريهما سوآتهما .

ينزع عنهما لباسهما

إنها للمسة من لمسات الرحمة والحب لهذا المخلوق وشعور بالعطف عليه متمثلة في نداء الله للبشر جميعاً ليس للمسلمين خاصة وهو يناديهم ويحذرهم من الوقوع في فتنة الشيطان « يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما »[(٣)] .

---

(١) البخاري .
(٢) الفتح ، ج١ ، ص ٥٢٣ .
(٣) الاعراف ٢٧ .

ولقد نجح عدو الله في تطبيق هذا المخطط ، نزع اللباس لتحطيم كل شيء اسمه حياء منذ العصور البالية إلى عصرنا هذا فيما يرويه ابن كثير في عصر الجاهلية قبل الإسلام أن « العرب ما عدا قريشاً لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها وكانت قريش - وهم الحمس - يطوفون في ثيابهم ومن أعاره أحمسي ثوباً طاف فيه ، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه أحد . . . ومن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسي ثوباً طاف عرياناً . . . وربما كانت امرأة فتطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئاً ليستره بعض الستر . . . وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل . . . وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آبائهم ويعتقدون أن فعل آبائهم يستند إلى أمر من الله وشرع »[1].

إنها جاهلية محضة واستزلال من الشيطان محكم - هذا الذي يحذرنا الله منه ، فالخطة هي الخطة لم تتغير من بداية استزلال آدم وزوجه في الجنة إلى الآن ، ولقد حذرنا الله من هذه الفتنة لعلمه أن منها تنبع أكثر الجرائم. ولا يخفى على كل منا ما ينتج عن العري الموجود على صفحات المجلات ودور الخيالة والشاشات الصغيرة وما يمارس علناً في دول أوربا وبعض الدول الإسلامية من جرائم خطيرة وضياع تام في صحراء الضلال وكم من ضحية ذهبت وكم من أمراض حدثت كلها بسبب هذا العري الذي يفتن إبليس به بني آدم ولا ينتهون، والله يبين لهم بقوله «يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما» وهم لا يسمعون .

ولولا ولاؤهم لإبليس وطاعته فيما يأمرهم به ما استطاع فتنهم ولكنه الولاء الذي أعماهم عن طريق الحق وهو قريب منهم لو حاولوا أن يخطوا فيه .

---

(١) الحمس من الحماسة وهي الشدة في الامر والشجاعة . والحميس : الشجاع .

الولاء

الولاء لا يكون إلاّ لله أو للشيطان ولا يوجد ولاء ثالث بين الاثنين ومعنى الولاية « ضد العداوة وأصل الولاية المحبة والقرب وأصل العداوة البغض والبعد وقد قيل ان الولي سمي ولياً من نحو موالاته للطاعات أو متابعته لها والأول أصح والولي القريب «فيقال: هذا يلي هذا أي يقرب منه»[1] فأولياء الله هم الذين يحبون الله وهو يحبهم ويقربون منه وهو يقرب منهم أكثر مما يقربون، ولقد قال صلى الله عليه وسلم « يقول الله أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»[2]والأتقياء لا يوالون إلاّ الله وكل ما خلا الله فهو في حسابهم من معسكر الباطل حتى دعا ذلك الفهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول : « أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل »[3] فهم على هذا الفهم لا يوالون الكفار أياً كانوا حتى ولو كانوا من أقرب الناس إليهم رحماً وهؤلاء وصفهم الله بقوله: «لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألاّ إن حزب الله هم المفلحون »[4] .

---

(١) ابن تيمية ــ الفرقان بين اولياء الرحمن واولياء الشيطان ، ص ٧ .

(٢) البخاري ومسلم .

(٣) صحيح مسلم .

(٤) المجادلة ٢٢ .

وهذا أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح يقتل أباه في معركة بدر ، وهذا الصديق يهم بقتل ولده . . . وهنا يبرز سؤال ، أويكره الابن أباه والأب ابنه ؟ لا لا يكرهه لذاته إنما يكره الباطل الذي يتبعه وما دام الله هو وليه فهو لا يحب إلاّ من والى الله وأما غيره فليس له في قلبه شيء من المودّة ، ذلك لأنه باطل .

ومن أجل هذا الولاء الذي عقده المؤمنون مع ربهم كانت المكافأة نفيسة ، أما في الدنيا فإن الله « يدافع عن الذين آمنوا » (١) بل ينزل جنوده لتقاتل معهم ويحارب كل من يعاديهم وذلك ما ذكره صلى الله عليه وسلم فيما يُرويه عن ربه «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتّى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها » (٢) فليس يحارب من يعاديهم فحسب بل يكون معهم بكل شيء ، حتّى لا يسمعون ولا يبصرون ولا يبطشون ولا يسعون إلاّ كما يحب لهم ربهم ويرضى . أما في الآخرة فإنه يجزيهم بسلعة الله الغالية ألا وهي الجنة .

وصنف آخر من الناس يذكرهم الله بعدوهم الأول قائلاً : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » ثم يحذرهم من موالاته وينكر عليهم اتباعه فيقول : « أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً » (٣) هذا الصنف من الناس يحبونه وهو يبغضهم ويتقربون إليه بقلوبهم وبأعمالهم وهو يكيد لهم المكائد ويوقعهم بالمصائب ، تماماً كما قال الشاعر :

ومن البليـــة من تحـ ـب ولا يحبك من تحبه
ويصد عنـــك بوجهه وتلح أنت فلا تغبه (٤)

---

(١) الحج ٣٨ .
(٢) البخاري .
(٣) الكهف ٥٠ .
(٤) اغب الزائر : جعل زيارته كل اسبوع ـ ديوان الشافعي .

حقاً انه لبلاء أن تحب وتتقرب وتفني حياتك كلها ليلك ونهارك في سبيله وهو لا يحبك .

وحتى نكون على بينة من الأمر بالحب الذي ينجي من عذاب الله والحب الذي يوجب غضب الله ، نتعرض لما ذكره الإمام ابن القيم قال : « وههنا أربعة أنواع من الحب يجب التفريق بينها وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينها :

أحدها ـ محبة الله ولا تكفي وحدها في النجاة من الله من عذابه والفوز بثوابه فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله .

الثاني ـ محبة ما يحب الله وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها .

الثالث ـ الحب لله وفيه وهي من لوازم محبة ما يحب الله ولا يستقيم محبة ما يحب الله إلاّ بالحب فيه وله .

الرابع ـ المحبة مع الله وهي المحبة الشركية وكل من أحب شيئاً مع الله لا لله ولا من أجله ولا فيه فقد اتخذه نداً من دون الله وهذه محبة المشركين. وبقي قسم خامس ليس نحن فيه وهي المحبة الطبيعية وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه كمحبة العطشان للماء والجائع للطعام ومحبة النوم والزوجة والولد فتلك لا تذم إلاّ إن ألهت عن ذكر الله وشغلته عن محبته » [1] فمن اتخذ الشيطان وذريته أولياء من دون الله وما يحب الله فقد حق عليه غضب الله وكان كاذباً بادعائه محبة الله فالمحب لله كما ذكر الامام يحب ما يحب الله ويبغض ما يبغض الله ويحب لله ويبغض لله فإذا ما استبدل فيستبدل لله لا لهوى أو شهوة كما يفعل أولئك الصنف من الناس « بئس للظالمين بدلاً » .

---

(١) الجواب الكافي ، ص ١٣٤ .

هذا الصنف من الناس لا يستبدلون إلّا عندما يصدون عن سبيل الله، وهذه هي سنة الله في خلقه، فئة يصدون عن الحق وفئة يتبعونه وكلما غفل أهل الحق ووسوس لهم الشيطان ليصدهم عن طريقهم تذكروا تحذير الله لهم، وعادوا مرة أخرى سائرين في طريقهم ليقتلعوا الأشواك التي تعترضهم فيه... وماذا يكون بعد الولاء إلّا الاتباع لعدو الله لا لشيء سوى الفوز بالدنيا وزينتها، وما دروا أن مثل الحياة الدنيا «كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور»[1].

عذاب شديد للذين اتبعوا خطوات الشيطان ومغفرة من الله ورضوان للذين اتبعوا طريق الحق « أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

اتباع الشيطان

وفي هذه المرة يأتي النداء السماوي لفئة خاصة هي أحب الفئات إلى الله أولئك هم المؤمنون منادياً لهم « يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر » [2] .

وهذا النداء حريّ بالمؤمنين أن تتفتح له قلوبهم ومسامعهم ليفقهوه، لأنه انبعث من خالقهم الذي يحبهم، ونداء التحذير هذا يكون له وقعه في أذن السامع عندما يأتي من المحب. وهنا يصدق قول الشاعر:

تعصي الإله وأنت تبدي حبه   هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته   إن المحبَّ لمن يحب مطيع

وعلى المؤمن أن يرفع قدمه بسرعة ويحولها إلى طريق النور عندما يكتشف

(١) الحديد ٢٠ .
(٢) النور ٢١ .

أن الخطوة التي أمامه هي خطوة من خطوات الشيطان ، ويلبس إبليس على المؤمن أحياناً ويوهمه بأن الخطوات التي يخطوها هي خطوات خير ، ولكن على المؤمن أن يكون صاحب فطنة وعلم ليفرق بين خطوات الشيطان وخطوات الرحمان فأتباع الشيطان يشتمل على عدة أقسام بيَّنها الله تعالى في كتابه أهمها:

(أ) اتباع الهوى :

قال الله تعالى : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » [1] .

« وسببه وسخ يكون في القلب، لما فيه من طمع وحسد وانتصار للنفس، يحجب الرؤية أو يشوشها كالذي ينظر من وراء زجاجة سوداء » [2] ويتولد عن الهوى مرض أخطر منه، ألا وهو الإعراض عن الحق ، فصاحب الهوى لا يستسلم للحق عندما يعرض عليه ويرده بسبب ذلك الوسخ الذي عكّر قلبه، لذلك كان همُّ كل المربين على مر العصور أن يحذروا اتباعهم من الهوى . فكان علي رضي الله عنه يدرك خطورة هذا المرض مما جعله يقول : « إن أخوف ما أخاف عليكم اثنين : طول الأمل، واتباع الهوى ، فأما طول الأمل فينسي الآخرة وإما اتباع الهوى فيصد عن الحق » [3] .

(ب) اتباع سبيل المفسدين :

قال الله تعالى على لسان نبيه موسى موصياً أخاه هارون « ولا تتبع سبيل المفسدين » [4] « يقول ولا تسلك طريق الذين يفسدون في الأرض بمعصيتهم

---

(١) القصص ٥٠ .
(٢) العوائق ، ص ٦١ .
(٣) الزهد لاحمد ، ص ١٣٠ .
(٤) الاعراف ١٤٢ .

ربهم ومعونتهم أهل المعاصي على عصيانهم ربهم ولكن أسلك سبيل المطيعين ربهم »[1]

(جـ) اتباع الشهوات :

قال الله تعالى : « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات »[2] ، « واتبعوا الشهوات » أي فعلوا ما تشتهيه أنفسهم وترغب إليه من المحرَّمات[3] .

(د) اتباع السبل :

قال تعالى : « ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله »[4] .

وكل سبيل غير سبيل القرآن والسنّة الصحيحة فهو من السبل التي نهينا عن اتباعها – قال الإمام الطبري : « حدثني المثنى قال حدثنا الحمامي قال حدثنا حمام ، عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله قال : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً خطاً فقال : هذا سبيل الله ، ثم خط عن يمين ذلك الخط وعن شماله خطوطاً فقال : هذه سبل ، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها ثم قرأ الآية «وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله»[5].

(هـ) اتباع الظن :

قال الله تعالى : « إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم ألا تخرصون »[6] .

---

(١) تفسير الطبري ، ج ١٣ ص ٨٨ .
(٢) مريم ٥٩ .
(٣) فتح القدير ، ج ٣ ص ٣٦ .
(٤) الانعام ١٥٣ .
(٥) صحيح الاسناد رواه احمد بالمسند ، تحقيق م.م. شاكر .
(٦) الانعام ١٤٨ .

« يقول له : قل لهم : إن تقولون ما تقولون ، أيها المشركون وتعبدون من الأوثان والأصنام ما تعبدون وتحرمون من الحرث والأنعام ما تحرمون إلاّ ظناً وحسباناً انه حق وانكم على حق وهو باطل وأنتم على باطل « وإن أنتم إلا تخرصون » [1] فلا يوجد مبدأ صحيح على الأرض يعتمد على الظن .

(و) اتباع الآباء :

قال الله تعالى : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » [2] . « فهذا هو سندهم الوحيد وهذا هو دليلهم العجيب التقليد الجامد المتحجر الذي لا يقوم على علم ولا يعتمد على تفكير . التقليد الذي يريد الإسلام أن يحررهم منه ، وأن يطلق عقولهم لتتدبر ، ويشيع فيها اليقظة والحركة والنور فيأبوا هم الانطلاق من اسار الماضي المنحرف ويتمسكوا بالأغلال والقيود » [3] .

ولقد وجدنا في عصرنا هذا فئة من الناس يتبعون آباءهم في كل شيء ، وكل شيء يعارض ما جاء فيه آباؤهم يعتبرونه خطأ ، وقد خضت مع أحد هؤلاء حديثاً طويلاً فلم أستطع أن أقنعه بشيء . . .

والمسلم لا يصح له أن يتبع إنساناً مثله لأن الإنسان خطّاء وذو نفسية متقلبة ، فتجده اليوم على رأي وغداً على رأي آخر ، لذلك بين الله تعالى موقف هؤلاء بهذه الآية «أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير».

(ز) اتباع المتشابه :

قال الله تعالى : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنَّ

---

(١) تفسير الطبري ، ج ١٢ ص ٢١١ .
(٢) لقمان ٢١ .
(٣) الظلال ، ج ٥ / ٢٧٩٣ .

أم الكتاب وأُخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله »[1] .

« إن المحكم هو الواضح المعنى الظاهر الدلالة ، إما باعتبار نفسه أو باعتبار غيره والمتشابه ما لا يتضح معناه أو لا تظهر دلالته لا باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره « فأما الذين في قلوبهم زيغ » الزيغ : الميل « فيتبعون ما تشابه منه » أي يتعلقون بالمتشابه من الكتاب فيشككون به على المؤمنين ويجعلونه دليلاً على ما هم فيه من البدعة المائلة عن الحق ، كما تجده في كل طائفة من طوائف البدعة فإنهم يتلاعبون بكتاب الله تلاعباً شديداً ويوردون منه لتنفيق جهلهم ما ليس من الدلالة في شيء « ابتغاء الفتنة » أي طلباً منهم لفتنة الناس في دينهم والتلبيس عليهم وإفساد ذات بينهم « وابتغاء تأويله » أي طلباً لتأويله على الوجه الذي يريدونه ويوافق مذاهبهم الفاسدة »[2] .

فكل هذه الأنواع من الاتباع هي اتباع لخطوات الشيطان التي نهانا الله عن اتباعها ، والضمان الوحيد لسلوك طريق الحق والابتعاد عن خطوات الشيطان هو الاستسلام الخالص لله ، الاستسلام له بكل ما تحوي هذه الكلمة من معان لذلك قال الله لهم منادياً من جديد : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين »[3] وهذا النوع من الاستسلام يجعله لا يخاف إلاّ في الله ولا يتلقى إلاّ من الله ولا يتبع إلاّ القرآن والسنّة المطهرة فتكون خطواته كلها محكمة بعيدة عن خطوات الشيطان وطريقه ، وان المؤمن ليصل إلى درجة أن الشيطان نفسه يقوم يخطو بعيداً عن خطواته هارباً منها . وذلك بعد أن يصل المؤمن إلى درجة الاستسلام الكامل للواحد الدّيان والمثال على ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه قال

---

(١) آل عمران ٧ .
(٢) فتح القدير ج ١ ص ٣١٥
(٣) البقرة ٢٠٨ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمر رضي الله عنه « والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك » [1] .

لا يصدنكم

إن عدو الله دائماً يسعى للوسوسة في قلوب المؤمنين يغريهم بملاذ الدنيا وزينتها ويحثهم على طاعة أنفسهم واتباع أهوائهم ويعظم في نفوسهم قوة الباطل وحجمه وقلة أهل الحق وانحسار سلطانهم ، كل ذلك ليصدهم عن الحق ويجعلهم تابعين للباطل.

وإنه ليستخدم كل ما يملك من قوة ليصد الدعاة في سبيل الله عن طريقهم الذي التزموه ، يسكب عليهم كل وساوسه ليفتنهم ، حتى لتصل وساوسه إلى درجة أن المسلم يفضل أن تنطبق عليه السماء أو تبتلعه الأرض ولا يتفوه بكلمة من هذه الوساوس ؛ وعن أبي هريرة قال: جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فسألوه : إننا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به . قال : « وقد وجدتموه » ؟ قالوا : نعم ، قال : « ذاك صريح الإيمان » [2].

ولكن الله يذكرهم بعدوهم الأول ويحذرهم من الاستسلام لوساوسه لكي لا يصدوا عن سبيل الله «ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين»[3]، « أي لا تغتروا بوساوسه وشبهه التي يوقعها في قلوبكم فيمنعكم ذلك من اتباعه . ثم علل نهيهم عن أن يصدهم الشيطان ببيان عداوته لهم فقال « انه لكم عدو مبين » [4] .

ولئن استسلموا واغتروا بوساوسه سيكونون مع الراحلين إلى السعير. . .

---

(١) صحيح مسلم .
(٢) صحيح مسلم .
(٣) الزخرف ٦٢ .
(٤) فتح القدير ، ج ٤ ص ٥٦٢ .

دعوة الى السعير

إن الذين علموا أن الشيطان لهم عدو فاتخذوه عدواً ، موقنون حقّ اليقين بأنه يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير. أما أولئك الذين غلبتهم أهواءهم وغشى الباطل قلوبهم وحسبوا أن الشيطان حبيب لهم فأتبعوه وبدأوا يفتخرون ما بين آونة وأخرى باتباعه في كل شيء في السياسة والاقتصاد والاجتماع ، يجيء تحذير الخالق جل وعلا لهم ليذكرهم أن الشيطان ما زال مسدداً سهامه إليهم وما زال يحدد موقع المقتل في أجسادهم وما زال ينتظر المصابين بسهامه أن يقعوا في الهوة الساحقة بعد ترنحهم من أثر الضربات قائلاً لهم : « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً »[1] فلا يكفي العلم بأنه عدو فحسب بل عليهم أن يتخذوه عدواً . . . عليكم أن « لا تركنوا إليه ولا تتخذوه ناصحاً لكم ولا تتبعوا خطاه فالعدو لا يتبع خطى عدوه وهو يعقل وهو لا يدعوكم الى خير ولا ينتهي بكم إلى نجاة « إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » إنها لمسة وجدانية صادقة حين يستحضر الإنسان صورة المعركة الخالدة بينه وبين عدوه الشيطان يتحفز لدفع الغواية والإغراء ويتيقظ لمداخل الشيطان إلى نفسه ويتوجس من كل هاجسة ويسرع ليعرضها على ميزان الله العادل الذي أقامه له ليتبين له الحق فلعلها خدعة مستترة من عدوه القديم»[2].

وفي الآية كذلك دعوة من الله لأصحاب الحق بالمفاصلة « فاتخذوه عدواً » وتحذير من الحق جل وعلا في نفس الوقت من أن يتخذ أصحاب الحق عدوهم وحزبه أولياء أو يتنازلوا بعض الشيء عن مبادئهم . . . كلا وألف كلا انهم أعداء « فاتخذوه عدواً » .

---

(١) فاطر ٦ .
(٢) في ظلال القرآن ٤ ج ٥ ص ٢٩٢٦ .

وهنا يتذكر أصحاب الحق أن الله وعدهم جنات تجري من تحتها الأنهار والشيطان يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير . . . فلا يغرنكم كثرتهم إنهم إلى السعير سائرون . . . إن حياتهم على هذا الكوكب هي راحلة إلى السعير . . .

الفصل الثالث

صفاته

١ – الضعف .

٢ – الكذب والجبن .

٣ – من وحي الباطل .

٤ – انه يراكم .

٥ – المبذرون .

الضعف

إن السر في انتصار المسلمين في الصدر الأول من الإسلام وانتشارهم هذا الانتشار مع قلة عددهم في معظم المعارك التي خاضوها مع خصومهم ، والسر كذلك في نجاح الدعوات الإسلامية الصادقة وتفاني أهلها في سبيلها وتقديم أعناقهم وأموالهم وأوقاتهم رخيصة في سبيل الله ، السر في ذلك هو عقيدة المؤمن الصادق الذي يؤمن بأنه يخوض معركته مع الباطل مستمداً قوته من الله الذي خلق كل شيء بينما يستمد أولياء الباطل قوتهم من قائد ضعيف .

وأن المؤمن ليكفيه أن يتذكر قول الله تعالى :

« فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً »[1] حتى ينقض انقضاض الطائر الجارح على الباطل فيقطعه إرباً إرباً .

إن الباطل في عقيدة المؤمن الصادق كفقاعة كبيرة منتفخة ومتلونة بأجمل الألوان المتمازجة ولكن جدارها رقيق وباطنها خواء ، مما يجعله يقدم على الباطل لا يهاب انتفاخه ولا ألوانه الجميلة ، يقدم عليه متوكلاً على الله مولاه مبتغياً ثقب تلك الفقاعة ليذوب ذلك الباطل الضعيف .

---

(١) النساء ٧٦ .

الكذب والجبن

والكذب من أبرز صفات إبليس إذ أنه يستخدمه لتسهيل تنفيذ مخططه وهو أول وسيلة استخدمها مع آدم ويستخدمها مع بني آدم في كل زمان ومكان ، فمخططه لا ينجح إلاّ بذلك « وما يعدهم الشيطان إلاّ غروراً »[1] .

وحتى اتباعه لا ينجحون إلاّ بذلك ولو انهم كشفوا للناس عن حقيقة نواياهم الخبيثة لولّى الناس عنهم ، فلا بد من رفع الرايات الكاذبة ليجذبوا الناس إليهم فيرفعون رايات الحرية والمساواة والإخاء ولا شيء من ذلك في عالم الواقع .

ولقد ظهرت هذه الصفة بصورة عملية في معركة بدر عندما عزم الكفار على محاربة المسلمين « فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك المدلجي وكان من أشراف كنانة فقال لهم : « لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم » من أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه فخرجوا والشيطان جار لهم لا يفارقهم فلما بعثوا للقتال ورأى عدو الله جند الله قد نزلت من السماء فرّ ونكص على عقبيه فقالوا : إلى أين يا سراقة ألم تكن قلت انك جار لنا لا تفارقنا فقال : « إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب » وصدق في قوله إني أرى ما لا ترون وكذب في قوله إني أخاف الله »[2]

لقد ألقى في نفوسهم أن لا غالب لكم اليوم من الناس وأوحى إليهم أنهم هم الأقوياء وخدعهم بكثرتهم وقام يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً . . . ومع ذلك كله خسروا المعركة وذلك لأن وحيهم كان من وحي الباطل .

---

(١) النساء ١٢٠ .
(٢) زاد المعاد ، ج ٢ ص ٨٨ .

من وحي الباطل

إن من سنن الله أن قيض لهذا الحق أعداء وليس عدواً واحداً ، أعداء من صنفين مختلفين من الخلق ، من الإنس والجن « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطينَ الإنس والجن »[1] .

والشيطان كلمة تطلق على كل من استشرى شره وقام يدعو للشر ، سواء كان من الجن أو الإنس ، والكثير لا يعرف هذه الحقيقة فهو يحترس من شياطين الجن ولا يحترس من شياطين الإنس ، وكيف يستطيع تمييزه وهو إنسان مثله يشرب كما يشرب ويأكل كما يأكل وينام كما ينام ولهما نفس الأعضاء .

من هنا تكمن الخطورة في خطة عدو الله ، لقد رسم الخطة ووحد الهدف فجميع الشياطين هدفهم واحد وغايتهم واحدة سواء كانوا من الجن أو الإنس وهي قيادة الإنس والجن إلى جهنم أو بمعنى أوضح « إنارة طريق الهلاك لمتبعيهم » ويمتازون بصفات كثيرة تؤهلهم لتحقيق هدفهم منها إيحاء بعضهم لبعض زخرف القول « يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً »[2] .

« يمد بعضهم بعضاً بوسائل الخداع والغواية وفي الوقت ذاته يغوي بعضهم بعضاً ، وهي ظاهرة ملحوظة في كل تجمع للشر في حرب الحق وأهله . . . إن الشياطين يتعاونون فيما بينهم ويعين بعضهم بعضاً على الضلال أيضاً ، انهم لا يهدون بعضهم بعضاً إلى الحق أبداً ولكن يزين بعضهم لبعض عداء الحق وحربه والمضي في المعركة معه طويلاً »[3] .

---

(١) و (٢) الانعام ١١٢ .
(٣) الظلال ، ج ٣ ص ١١٩١ .

فكأنه تواص بينهم على الضلال وكأنما يضل بعضهم بعضاً ويلقون ببعضهم بالنار ولا يشعرون . . . وإني لأكاد أرى هذا المنظر ماثلاً أمام عيني في كل مجلس باطل به شياطين الإنس .

انه يراكم

لقد أكسب الله إبليس صفة الرؤية لبني آدم من غير أن يروه وهي بلا شك صفة خطيرة حيث أن صاحب هذه الصفة يملك أن يراقب الآخرين ويرصد حركاتهم وهم لا يرونه ، فبهذا يكون متحكماً فيهم أشد تحكماً ، يرفع سلاحه ويسدد بأناة ثم يضرب خصمه ويقتله بسهولة ويسر ، فلو كان يراه لهب يدافع عن نفسه ولكن أنى له ذلك وهو لا يراه .

وتبقى هذه الصفة خطيرة على بني آدم إلاّ من استعصم بقوة أقوى من مالك هذه الصفة فإنه من دون شك سيعصمه من إبليس وقبيله بل يقذف في قلبه الإحساس برؤية إبليس ليأخذ حذره منه « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون »[1] .

ولا يقدر عدو الله أن يرقب ويقتل إلاّ أولئك المبذرين بالباطل المسرفين فيه ، أما أولئك الذين ألبسوا أنفسهم ثياب الحق وعاهدوا الله على أن لا ينزعوها فأولئك في حمى الله ذلك لأنهم حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون .

---

(١) الاعراف ٢٧ .

المبذرون

لربما يتبادر إلى أذهان البعض لأول وهلة عند سماعهم لكلمة التبذير أنها تعني « كل مادة تنفق فوق الحد المعقول » ولكن يبقى هذا التصور عائماً متقطعاً غير متماسك ما لم يحدد بحدود ويضبط بضوابط فليس كل ماد تنفق فوق الحد المعقول تعتبر من التبذير، أما الإنفاق نوعان: إنفاق للحق وإنفاق للباطل.وبهذا الصدد قال مجاهد : « لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً ولو أنفق مداً في غير حق كان مبذراً » .

ولنرجع إلى الرعيل الأول قليلاً فنرى أعلم الناس بكتاب الله بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال : « لقد علم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إني أعلمهم بكتاب الله ولو أعلم أن أحداً أعلم مني لرحلت إليه » [١] وهو الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما نزلت الآية « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا » إلى آخر الآية « قيل لي أنت منهم » [٢] هذا الصحابي الجليل هو عبد الله بن مسعود الذي عندما عرّف التبذير جاء تعريفه شاملاً دقيقاً عندما قال فيه أنه « ما أنفق بغير حق » بلى كل شيء أنفق بغير حق من مال ووقت وكلام فهو من التبذير وهذه صفة من صفات الشيطان وزمرته ، أنهم ينفقون دون ملل ولكنها نفقات باطلة ، فمنهم من يتلذذ بهذا العطاء الباطل فتراه يحدث الناس بالباطل حتى يسرف فيه ويرمي أصحاب الحق بما ليس فيهم حتى أنه يكون سبباً في تجنب الكثير من الالتحاق بعصبة الحق خوفاً مما حيك حولهم . وكيف يعيش هؤلاء وقد أصبحوا إخوة للشيطان « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان

---

(١) و (٢) صحيح مسلم .

لربه كفوراً »[1] ترى ما النهاية التي تنتظر ذلك الإنسان الذي يحمل بين يديه برميلاً من الزيت لا يريد أن يلقيه وهو يعلم أن الطريق الذي يسير فيه موصل إلى نار ؟؟؟

نعم يكون أخاً للشيطان كل من أنفق من ماله ووقته وكلامه بغير الحق وهو من أخطر الأمراض التي تصيب الدعاة ، فترى بعضهم ينفقون أوقاتاً كثيرة ساعات تلو الساعات على الموائد يناقشون بها مواضيع تبدو في ظاهرها أنها حق وما هي إلاّ ضرب من اللغو الذي لا يبنى عليه عمل كأن يتناقشوا في الفتنة التي حدثت بين الصحابة أو في تأويل بعض الآيات والأحاديث أكثر مما تحتمل أو في خلافات فقهية حول أحكام لم تقع ، أو في التنقيب عن أخطاء بعض المفكرين الإسلاميين لا من أجل دراسة الأخطاء والابتعاد عنها ولكن للتجريح فقط والتشهير .

ذلك ما انتبه إليه الشيخ حسن البنا وعلم أن من بين صفوف الدعاة من يتخذ ذلك النوع من الكلام هواية له فقال : « وكل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذي نهينا عنه شرعاً ، ومن ذلك كثرة التفريعات للأحكام التي لم تقع ، والخوض في معاني الآيات الكريمة التي لم يصل إليها العلم بعد والكلام في المفاضلة بين الأصحاب ، رضوان الله عليهم . وما شجر بينهم من خلاف ، ولكل منهم فضل صحبته وجزاء نيته وفي التأول مندوحه »[2] .

وصنف آخر ينفق ذلك الوقت بتناول مواضيع لا خير فيها ولا نفع .

وعلى هذا يتبين أن التبذير ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

---

(١) الاسراء ٢٧ .
(٥) رسالة التعاليم ، ص ٦ .

أولاً – تبذير المال :

قال الله تعالى : « ولا تبذر تبذيراً »[1] .

« قال الشافعي رضي الله عنه: والتبذير إنفاق المال في غير حقه ولا تبذير في عمل الخير وهذا قول الجمهور . وقال أشهب عن مالك : التبذير هو أخذ المال من حقه ووضعه في غير حقه وهو الإسراف وهو حرام لقوله تعالى : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين » وقوله إخوان يعني إنهم في حكمهم ، إذ المبذر ساعٍ في إفساد كالشياطين أو أنهم يفعلون ما تسول لهم أنفسهم أو أنهم يقرنون لهم غداً في النار »[2]

ثانياً – تبذير الصحة :

وذلك في قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ »[3] فنجد كثيراً من الناس أعطاه الله الصحة الكاملة وأبعد عنه الأسقام ولكنه ينفق هذه الصحة التي أعطاها الله إليه في معصية خالقه ، كأن يستخدم رجليه في الخطو إلى أماكن المعصية ويديه في مسك ورفع ما حرّم الله والبطش بالناس وعينه في النظر إلى ما حرّم الله ، وإذا مرض تندّم وقام يتمنى أن لو عمل صالحاً في صحته .

ثالثاً – تبذير الوقت :

وذلك واضح أيضاً في الحديث السابق ذكره – فإن هذا المرض لم يقتصر على العامة فقط ولكنه تسرب إلى مجتمع الدعاة أنفسهم . يقول الإمام ابن

---

(١) الاسراء ٢٦ .
(٢) القرطبي ، ج ١٠ ص ٢٤٧ .
(٣) البخاري .

الجوزي: «قد يكون الإنسان صحيحاً ولا يكون متفرغاً لشغله بالمعاش وقد يكون مستغنياً ولا يكون صحيحاً فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة. فهو المغبون وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط ومن استعملهما في معصية الله فهو المغبون لأن الفراغ يعقبه الشغل والصحة يعقبها السقم »[1].

---

(١) الفتح . ج ١١ ص ١٩٦ .

الفصل الرابع

أعمـــاله

١ – الطعن .

٢ – الخمر والميسر والأنصاب والأزلام .

٣ – بول الشيطان .

٤ – ضحك الشيطان .

٥ – الإدبار .

٦ – اتباع الغاوين .

٧ – السرقة .

٨ – الانتشار في بداية الليل .

الطعن

والطعن هو أول عمل يقوم به إبليس للإنسان عند أول خروج اه إلى هذه الدنيا ، إعلاماً منه لبداية المعركة مع هذا المولود الجديد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل ابن آدم يطعن الشيطان في جنبيه بإصبعيه حين يولد غير عيسى بن مريم ذهب يطعن فطعن في الحجاب »[١] يقول القرطبي : « هذا الطعن من الشيطان هو ابتداء التسليط فحفظ الله مريم وابنها منه ببركة دعوة أمها حيث قالت : « إني أعيذها بك وذرّيتها من الشيطان الرجيم »[٢]

وكل مولود يولد على الفطرة وإنما الذي يهوّده أو ينصّره أو يمجّسه هما أبواه ، ومما لا شك فيه بأن الهداية بيد الله ولكن الوالدين هما سببان كبيران لسلوك الطفل فإن حلى لهما طعن الشيطان باعاه له « بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » ، وأما إن عز عليهما ذلك الطعن فإنهما يقولان كما قالت امرأة عمران عندما وضعت مريم « إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم »[٣] .

فينشأ ذلك الطفل بين أبوين صالحين متحرراً من كل طعن من عدوه القديم مهما كان شكله صغيراً كان أم كبيراً .

---

(١) صحيح البخاري .
(٢) الفتح ، ج ٦ ص ٤٦٩ ــ السلفية .
(٣) آل عمران ٣٦ .

الخمر والميسر والانصاب والازلام

والخمر أحد معانيه في اللغة «يدل على السّتر ، ومنه خمار المرأة ، لأنه يستر رأسها ، وسميت الخمر خمراً ، لأنهـا تستر العقل وتغطيه »[1] فإذا ما ذهب عقل الإنسان أصبح كالطين في يد الشيطان يشكله كيف شاء.

والميسر هو القمار وأحد اشتقاقاته « من اليسر ، لأن فيه أخذ المال بيسر وسهولة ، من غير كد ولا تعب »[2] وهذا من أكبر الدواعي لإيقاع الغضب والعداوة بين المقامرين . . .

والأنصاب هي « الأوثان من الحجارة كانت تجمع في الموضع من الأرض فكان المشركون يقربون لها القرابين ، قال ابن جريج النصب ليست بأصنام ، الصنم يصور وينقش وهذه حجارة تنصب ، فكانوا إذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت وشرحوا اللحم وجعلوه على الحجارة »[3] .

أما الأزلام فقد كان « أهل الجاهلية كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو نحو ذلك أجال القداح[4] وهي الأزلام وكانت قداحاً مكتوباً على بعضها (نهاني ربي) وعلى بعضها (أمرني ربي) فإن خرج القدح الذي هو مكتوب عليه أمرني ربي مضى لما أراد من سفر أو غزو أو تزويج وغير ذلك ، وإن خرج الذي عليه مكتوب نهاني ربي كف عن المضي لذلك وأمسك »[5] .

وكل هذه الأعمال كما قال الله تعالى هي من أعمال الشيطان « إنما الخمر

(١) احكام من القرآن والسنة ، ص ٢٥ .
(٢) احكام من القرآن والسنة ، ص ٣٢
(٣) الطبري ، ج ٦ ص ٤٨ ـ اللبنانية .
(٤) القداح : اي السهام .
(٥) الطبري ، ج ٦ ص ٤٩ ـ اللبنانية .

والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون[1]

« ويكفي أن يعلم المؤمن أن شيئاً من عمل الشيطان لينفر منه حسه وتشمئز منه نفسه ويجفل منه كيانه ويبعد عنه من خوف ويتقيه »[2] يبعد عنه لا يماري ولا يجادل عندما يعلمه خالقه أن ذلك من عمل الشيطان تماماً كما قال عمر رضي الله عنه عندما قرأت عليه الآية « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون »[3] فقال : « انتهينا انتهينا » وهكذا يجب أن يكون كل داعية إلى الله ينتهي ويبتعد عن كل عمل من أعمال الشيطان بمجرد سماعه للنهي[4].

وعندما يصل المؤمن لهذه السفوح يرفض أن يدخل إلى أذنه غير الحق فيصبح منادياً أذنه :

ويا أذني إن دعاك الهوى فإيـــاك إياك أن تسمعي

فهو ليس كهذا الذي ملأ الشيطان أذنه بالباطل فأصبح لا يسمع الحق .

بول الشيطان

« ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً نام ليله حتى أصبح قال : ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه أو قال في أذنه »[5].

« قيل إن بول الشيطان ملأ سمعه بالأباطيل فحجب سمعه عن الذكر

---

(١) المائدة ٩٠ .
(٢) الظلال ، ج ٢ ص ٩٧٥ .
(٣) المائدة ٩١ .
(٤) المدهش : ٢١٨ .
(٥) رواه البخاري .

وقيل هو كناية عن سد الشيطان أذن الذي ينام عن الصلاة . وقيل معناه أن الشيطان استولى عليه واستخف به حتّى اتخذه كالكنيف المعد للبول إذ من عادة المستخف بالشيء أن يبول عليه »[1] .

والنوم نعمة أنعمها الله على عبده لكي يستعين بها على أداء الطاعات لا ليستعين بها على معصيته فيجعل الليل معاشاً والنهار لباساً . . .

يـــا مطولاً بالقيام مستلـــذاً بالمنام
قم فقـد فـاتك يا مغبون أرباح الكرام
وخلوا دونك بـالمو لى وفازوا بـالمرام
وكذا تسبقك القـو م إلىٰ دار السلام[2]

ومن المؤلم أن نرى بعض الدعاة يسهرون الليل للعمل للدعوة وينامون بسبب ذلك متأخرين فلا يستيقظون لصلاة الفجر من أثر التعب ، وكان أولى بهم أن يقدموا الفرض على النافلة ويعلموا أن أحب شيء إلى الله أداء الفرائض وانه لا تقبل النافلة حتّى تؤدى الفريضة .

ضحك الشيطان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « التثاؤب من الشيطان فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع فإن أحدكم إذا قال ها ضحك الشيطان »[3] إن المؤمن يرفض أن تكون له أي صلة مع الشيطان فيكون من البديهي أن يرفض أن يضحك عليه في كل أمر حتّى من التثاؤب .

---

(١) الفتح ، ج ٣ ص ٢٨ ـ السلفية .
(٢) المدهش ، ص ١٩٣ .
(٣) البخاري .

ولئن نظرنا إلى الجانب الآخر من الحديث نرى أن الأمر لا يقتصر على شعور المؤمن أن الشيطان يضحك عليه إذا ما تثاءب فحسب ، بل يحتمل شعوراً آخر وهو أن الشيطان يسخر منه عند كل انحراف عن طريق الدعوة وبذلك يظل متحفزاً من أن يقع له خطأ أو انحراف ناظراً إلى طريقه بدقة كي لا يحيد فيكون أضحوكة لذلك العدو .

الادبار

والباطل دائماً في إدبار عن الحق منذ آدم عليه السلام إلى الآن يكره أحدهما الآخر لا يتهادنان ما دام الحق حقاً والباطل باطلاً والحق دائماً أصبر من الباطل يسمعه بكل ثقة ويرد عليه رد الموقن انه على حق ، أما الباطل فلا يملك هذه القوة ودائماً يفضل ألا يسمع الحق لأنه يعلم يقيناً انه أضعف من أن يصمد أمام الحق وذلك متمثل في زعيم الباطل واتباعه .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط فإذا قضى أقبل فإذا ثوب بها أدبر » [1] وأما أتباعه فهل هناك أكثر من أن يجعلون أصابعهم في آذانهم ويستغشون ثيابهم ويفرون كأنهم حمر مستنفرة فرَّت من قسورة فهل هناك أكثر من ذلك .

كل هذا الإدبار لئلاّ يسمعوا الحق ، وهناك فئة من الناس يهيىء الله لهم كل أسباب الهداية ويؤتيهم الحق ويأبون إلاّ الانسلاخ عن الحق والإدبار عنه وما أن ينسلخ من الحق حتى يتبعه الشيطان في كل مكان حتى يجعله من الغاوين .

---

(١) البخاري .

اتباع الغاوين

هذا الإنسان الذي أعطاه الله الحق واضحاً كاملاً ولكنه أعطى للحق قفاه ، وفي كل لحظة من لحظات عمر هذا الإنسان يبين الله له الحق ليهتدي به ولكنه يأبى إلا اتباع الشيطان « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين » [1] يبين له الحق في نفسه وفي الآخرين وفي الكائنات الحية وفي الكون ومع هذا الحشد من الحقائق التي تمر على هذا الإنسان يأبى إلا الانسلاخ عن الحق واتباع الشيطان ، وبعضهم يتأثر عند سماعه للحق لدقائق أو أيام أو شهور ولكنه لا يلبث حتى يعود من حيث أتى كأن الحق ملابس تحك جسده العاري فينزعها ويرميها بعيداً ويلبس ثياب الباطل ليتعرف عليه زعيمه إبليس كي يستقبله بعد ذلك الانسلاخ حالاً دون انتظار « فأتبعه » وضمه إلى معسكر الضلال وأكتسب هذا المعسكر عضواً جديداً بل وقوداً جديداً لجهنم ــ وسار هذا العدو يستقبل الألوف من المنسلخين عن الحق ـ ويا لحسرة على هذا الإنسان ويا لها من نهاية ـ الضلال بعد معرفة الحق وكأن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يندمج مع تلك الآيات شارحاً لها حين يقول : « فوالذي لا إله غيره ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها » [2] .

---

(١) الاعراف ١٧٥ .

(٢) البخاري ومسلم وله تكملة .

السرقة

ومن أعماله السرقة ، قالت عائشة رضي الله عنها : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن التفات الرجل في الصلاة فقال : « هو اختلاس يختلس الشيطان من صلاة أحدكم »[1] .

الانتشار في بداية الليل

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا استجنح الليل أو كان جنح الليل فكفوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذ فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم »[2] .

---

(١) البخاري .

(٢) البخاري .

الفصل الخامس

مداخله

١ – الأمر بالسوء .
٢ – نسيان الاستحواذ .
٣ – النزعات .
٤ – التخويف بالفقر .
٥ – فلا تخافوهم .
٦ – الأماني الكاذبة .
٧ – الاستهواء .
٨ – الإيحاء بالمجادلة .
٩ – تحريم ما أحل الله .
١٠ – غرس اليأس .
١١ – الاستفزاز .
١٢ – المشاركة .
١٣ – تفكيك الأسرة .
١٤ – الغضب .

١٥ ـ الانهماك بالمزاح .

١٦ ـ النجوى .

١٧ ـ ظن السوء .

١٨ ـ الغيبة .

١٩ ـ تصيد العيوب .

٢٠ ـ تزيين الشيطان الأصغر .

٢١ ـ تزيين الشيطان الأكبر .

٢٢ ـ الوسوسة .

٢٣ ـ وذلك أضعف الإيمان .

مداخله

ومداخل الشيطان كثيرة ومتعددة وبها يطبق خطته التي رسمها من قبل .

وهو يستخدم كل مدخل على حسب نوعية الإنسان ومستواه الإيماني ، وكذلك هو الحال بالنسبة للناس فعلى قدر قربهم من الله أو بعدهم عنه يدركون تلك المداخل وذلك لأن الله هو الذي يعين الإنسان لاكتشاف تلك المداخل ، فعندما يقرب العبد من الله تتضح له جلياً تلك المداخل ويعينه الله على التغلب عليها أما عندما يبتعد عن الله فإن الله يطمس على قلبه فلا يرى تلك المداخل ولا يشعر بها بل يحسب أن كل ما يقوم به عمل صالح « وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون »[١] والواقع يكذب ما يدعون « ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون »[٢] .

وهذا الفصل من أهم الفصول وهو لب البحث ومحوره . فمن غير معرفة مداخل إبليس يصعب على الإنسان مزاولة هذه الحرب التي عقدت بينه وبين عدوه إبليس ، ويصبح من العسير التحفز لخططه التي يريد بها إغواء البشر وتزيين الباطل لهم ليقعوا فيه . . .

---

(١) البقرة ١١ .
(٢) البقرة ١٢ .

الأمر بالسوء

إن أعمال الشيطان كلها ومداخله تندرج تحت الأمر بالسوء لأنه لا يعرف إلاّ الأمر بالسوء فأخبر عنه تعالى : « إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » [1] لأن الأمر بالسوء هو الضمان الوحيد لتحقيق غاياته فمنطق الجاهلية يقول ان الغاية تبرر الوسيلة وقد يخدع البعض ويلبس بعض أوامره ثوب الحق ولكنه أبداً لا يريد إلا السوء فلقد أخذ إذناً من الله وعهوداً على نفسه بأن يؤذي بني آدم أشد الإيذاء ويحاربهم بكل وسيلة ويقتحم دورهم في كل مكان ويستولي ويستزل من بني آدم حظاً معلوماً فقال : « لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله » [2] يحيد بذلك النصيب المفروض عن الطريق السوي طريق الاستقلال من قيود الشهوة التي تخضع الإنسان وتجعله ساجداً عابداً لها من دون الله ويأمرهم بالقيام بأعمال سخيفة كقطع آذان الأنعام حتى يصبح ركوبها وأكلها حراماً دون أن يحرمها الله ويأمرهم بتغير خلق الله بقطع أجزاء من الجسم أو تشويهها ولئن كانت هذه الأوامر في عهد الجاهلية فإن أوامره بهذا العهد ازدادت وتنوعت في أعياد مفتعلة وعادات غريبة وسياسة حمقاء وأكبر سوء يأمرهم به هو التحاكم إلى الطاغوت وترك التحاكم إلى الحق .

الحكم بالباطل هو التمسك بكل شيء من وضع البشر. وأحكام سخيفة هشة وترك ما وضع الله لهذا الإنسان من الحق.

---

(١) البقرة ١٦٩ .
(٢) النساء ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ .

« يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً »[1] .

علينا أن لا نتوقع أن عدو الله إبليس سوف يرفع راية الاستسلام . انه عدو لا يملُّ الحرب ، ان حربه دائمة فإما أن ينتصر وإما أن يهزم أمام إيمان المؤمن .

إنه عدو ذو غاية ، وصاحب الغاية لا يفتر أبداً حتى يحقّقها . . . والشيطان لا يأمر إلاّ أولئك الذين استولى عليهم فأنساهم ذكر الله . أما أصحاب الحق فإنه ينسيهم أحياناً ذكر الله ولكنه لا يستطيع أمرهم بشيء وحتى إذا ما أمرهم لا يلبون وذلك لأنهم يعودون إلى الله بسرعة « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم »[2] .

نسيان الاستحواذ

يقول الإمام ابن القيم : « خلق ابن آدم من الأرض وروحه في ملكوت السماء وقرن بينهما فإذا أجاع بدنه وأسهره وأقامه بالحزم وجدت روحه خفة وراحة فتاقت إلى الموضع الذي خلقت منه واشتاقت إلى عالمها العلوي وإذا أشبعه ونعمه ونومه واشتغل بخدمته وراحته أخلد البدن إلى الموضع الذي خلق منه فانجذبت الروح معه فصارت في السجن فلولا أنها ألفت السجن لاستغاثت من ألم مفارقتها وانقطاعها من عالمها الذي خلقت منه كما يستغيث المعذَّب »[3].

ومتى تظهر عتامة الطين الذي خلق منه الإنسان ؟

(١) النساء ٦٠ .
(٢) آل عمران ١٣٥ .
(٣) الفوائد ، ص ١٦٨ .

ومتى ترى الإنسان ذا البشرة البيضاء كأنها سوداء ؟

ومتى ترى الابتسامة كأنها عبوس والضحك كأنه بكاء ؟

ترى ذلك كله عندما الشيطان ينسى هذا الإنسان العنصر الآخر الذي خلق منه « نفخة من روح الله » [١] .

« استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله » [٢] .

ينسيه خالقه الذي صوره وأحسن تصويره، ويسعى عدو الله سعياً حثيثاً لتبخير كل ما علق فيه من ذرات من ذكر الله حتى يحيله إلى طينة يابسة لا حياة فيها ، وذلك ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر الله مثل الحي والميت » [٣] .

وكما قيل : فنسيان ذكر الله موت قلوبهم وأجسامهم قبل القبور قبور .

يحيله إلى أعمى لا يرى طريقه يتخبط خبط عشواء لا يدري أين يسير ولا إلى أين يسير كما قال تعالى:

« ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى. قال ربي لمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً . قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى » [٤] .

فهو كما كان أعمى عن الحق في الدنيا كذلك يجعله الله أعمى في الآخرة .

ويستخدم عدو الله وسائل كثيرة لتحقيق هذا المدخل منها ماذكر بالقرآن

---

(١) يقصد به نفخة الملك باذن الله تعالى .
(٢) المجادلة ١٩ .
(٣) البخاري ومسلم .
(٤) طه ١٢٤-١٢٦ .

الكريم كالخمر والميسر ، قال الله تعالى : « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة »[1] وأحياناً يستخدم المال والأبناء قـال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون »[2].

وحتى نتقي هذه النزغات وغيرها يجدر بنا معرفتها وكيف تتم . وهذه أمثلة من هذه النزغات.

النزغات

النـزغ من أهم وأخطر الفقرات في الخطة الشيطانية ذلك لأنه يخفى على الكثير وتترتب عليه نتائج خطيرة على الدعوة والدعاة ، ويستخدم الشيطان لتحقيق هذا المدخل وسيلتين وهما اللسان والأفعال .

أما اللسان فهو أهمهما فبه تتكون وتتجمع تلك النزغات في النفوس لذا قال الله تعالى : « وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم ان الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً »[3] وهو من أخطر المناطق في جسم الإنسان وبسببه يسعد السعداء بالجنة ويشقى الأشقياء بالنار «سأل معاذ النبي صلى الله عليه وسلم عن العمل الذي يدخله الجنة ويباعده عن النار فأخبره صلى الله عليه وسلم برأسه وعموده وذروة سنامه ثم قال ألا أخبركم بملاك ذلك كله ؟ قال بلى يا رسول الله فأخذ بلسان نفسه ثم قال كف عليك هذا

---

(١) المائدة ٩١ .
(٢) المنافقون ٩ .
(٣) الاسراء ٥٣ .

فقال وإنا لمواخذون بما نتكلم به فقال ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلاّ حصائد ألسنتهم »[1] ان تطهير اللسان من الآفات والتثبت قبل القول ووزن الكلام قبل التكلم به أمر ذو شأن إذ به تضمن الجنة كما قال صلى الله عليه وسلم : « من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة »[2] وكان ابن مسعود يقول : ما على وجه الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان[3] .

والأمثلة على تكوّن هذه النزغات في النفوس بسبب اللسان كثيرة منها ما ينزغ في نفس أحدهم عند سماعه لعالم دين فيقول له : « أظهر له إنك أعلم منه » فيدفعه ذلك لمناقشته إظهاراً لعلمه الذي يعلم ، أو تصيد أخطائه ليخبره بها أمام الناس ويظهر لهم أنه عالم وربما يتكون بسبب ذلك الجدل العقيم أن ينفّر كثير من الناس من الإسلام وهذه إحدى نتائج ضلال الأمة كما قال صلى الله عليه وسلم : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلاّ أتوا الجدل »[4] . . .

ومنها ما ينزغ في بعض النفوس عندما يكشف لهم البعض عن عيوبهم وينصحونهم بتركها فيقول له : « مثلك لا ينصح وكيف تتقبل هذه النصيحة وأنت أعلم من الناصح » أو يقول له : « كيف تتقبل هذه النصيحة من الذي أصغر منك سناً » فيجعله يخاصم الناصح ولا يكلمه أو يجعله يكره أن يراه أو يمشي معه . . .

قال ابن عقيل : « كان أبو إسحاق الخزاز صالحاً وهو أول من لقنني كتاب الله وكان من عادته الإمساك عن الكلام في شهر رمضان فكان يخاطب

---

(١) قال الترمذي : حديث حسن صحيح .
(٢) البخاري .
(٣) الفوائد ، ص ١٤٨ .
(٤) رواه الترمذي .

بآي القرآن فيما يعرض له من الحوائج فيقول بإذنه « ادخلوا عليهم الباب » ويقول لابنه في عشية الصوم « من بقلها وقثائها » آمراً له أن يشتري البقل ، فقلت له هذا الذي تعتقده عبادة هو معصية فصعب عليه ، فقلت : إن هذا القرآن العزيز أنزل في بيان أحكام شرعية فلا يستعمل في أغراض دنيوية ، فهجرني ولم يصغ إلى الحجة »[1] . . .

ومن نزغاته على بعض الناس انه « إذا دعي إلى طعام قال : اليوم الخميس ، ولو قال أنا صائم كانت محنة ، « وإنما قوله اليوم الخميس معناه إني أصوم كل خميس ومن هؤلاء من يرى الناس بعين الاحتقار لكونه صائم وهم مفطرون »[2] .

وما نزغ في نفوس البعض « من قوامي الليل فتحدثوا بذلك بالنهار فربما قال أحدهم : فلان المؤذن أذن بوقت ليعلم الناس أنه كان منتبهاً فأقل ما في هذا إن سلم من الرياء أن ينقل من ديوان السر إلى ديوان العلانية فيقل الثواب »[3] .

ومنها ما ينزع في نفوس بعض الدعاة من الانتصار للنفس إذا ما واجهوا بعض الشتائم والكلام القبيح من الجهال كما حدث ذلك لعمر بن عبد العزيز لولا أنه تذكر أنه في حالة غضب فخشي أن ينتصر لنفسه فقال للرجل : « لولا أني غضبان لعاقبتك »[3] .

وصنف آخر من الدعاة ينزغ في أنفسهم العجب بالنفس بما يقومون به من واجبات الدعوة فإنه « إذا انكر جلس في مجمع يصف ما فعله ويتباهى به ويسب أصحاب المنكر سب الحنق عليهم ويلعنهم ولعل القوم قد تابوا وربما كانوا خيراً منه لندمهم وكبره ، ويندرج بحديثه كشف عورات المسلمين ،

---

(١) تلبيس ابليس ، ص ١٧٧ .
(٢) تلبيس ابليس ، ص ١٦١ .
(٣) تلبيس ابليس ، ص ١٥٨ .
(٤) تلبيس ابليس ، صْ ١٦٥ .

والستر على المسلم واجب مهما أمكن فأما العالم إذا أنكر فأنت منه على أمان وقد كان السلف يتلطفون بالإنكار ، ورأى صلة بن أشيم رجلاً يكلم امرأة فقال إن الله يراكما، سترنا الله وإياكما . وكان يمر بقوم يلعبون فيقول : يا إخواني ما تقولون فيمن أراد سفراً فنام طول الليل ولعب طول النهار متى يقطع سفره ، فانتبه رجل منهم فقال : يا قوم إنما يعنينا هذا فتاب وصحبه »[1]

ومنها ما يلقي في نفوس بعض الناس من الكبر فإذا سئل أحدهم سؤالاً لا يعرف له إجابة نزغ في قلبه الشيطان قائلاً : « سيقول عنك إنك جاهل لا تعلم إذا لم تجبه » فيجعله يفتي من هوى نفسه فَيَضِل ويُضَل . «وقال عبد الله ابن المبارك : حدثنا سفيان عن عطاء بن السائب عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : أدركت عشرين ومائة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، — أراه قال في المسجد — فما كان منه محدث إلا ود ان أخاه كفاه الحديث ولا مفت إلا ود ان أخاه كفاه الفتيا وقال مالك عن يحيى بن سعيد قال : قال ابن عباس : ان كل من أفتى الناس في كل ما يسألونه عنه لمجنون — وقال سحنون بن سعيد : أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً ، يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم يظن أن الحق كله فيه »[2] .

ومنها ما ينزغ في قلوب البعض عندما يسمع من أخيه كلمة أراد بها مزاحاً أو قصد بها قصداً حسناً يلقي في نفسه « إن فلاناً قصد بهذه الكلمة كذا وكذا » مما يجعله يظن الظنون السيئة بأخيه ويؤول الكلام بأكثر مما يحتمل فيحقد على أخيه ويغتابه في نفسه وربما كان ذلك داعياً إلى هجره . . .

ومنها ما ينزغ في نفوس بعض « من يتكلم في دقائق الزهد ومحبة الحق

---

(١) تلبيس ابليس ، ص ١٦٥ .
(٢) اعلام الموقعين ، الجزء الاول .

سبحانه فلبسن عليه إبليس إنك من جملة الموصوفين بذلك لأنك لم تقدر على الوصف حتى عرفت ما تصف وسلكت الطريق »[1] . . .

أما الأفعال التي تسبب النزغات فهي أيضاً كثيرة لا حصر لها منها ما يلقي في بعض النفوس من العجب بالنفس عندما يلبسون الجديد . . .

ومنها ما ينزغ في نفوس البعض عندما يتعلم مهنة معينة أو لعبة رياضية ، فما تتهيأ فرصة إلاّ ونزغ الشيطان في نفسه أن « أرهم أنك عليم بذلك » .

ذلك الأمر الذي يحرم صاحبه من الأجر فليس له مما قام فيه سوى التعب ، وكما جاء في الحديث الصحيح القدسي يقول الله تعالى : « أنا أغني الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه »[2] .

ومنها ما ينزغ في نفوس بعض الدعاة أنه إذا رأى فعلاً منكراً من صاحبه قال له : « لا تنصحه فلربما يغضب من ذلك فتفقد بذلك صحبته » فيمنعه بذلك من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ومن نزغاته على البعض إذا همَّ بنصيحة عالم لرؤيته فعلاً منكراً منه يقول له : « أتنصح من هو أعلم منك بأمور الدين ، أتنصح عالماً » فيمنعه من نصيحته وبهذا تعم البلوى .

ومنها أنه إذا كان المسلم في جمع من الناس ورأى فقيراً وهمّ أن يعطيه نزغ في نفسه « أترائي أمام الناس أتعطي ليقال عنك محسن » فيمنعه من الإنفاق .

ومنها ما نزغ في نفوس بعض الدعاة بأن العبوس من الجد ، فلا تجد الابتسامة على وجوههم إلاّ ما ندر ، الأمر الذي يؤدي إلى نفور كثير من العامة من دعوة الحق بسبب ذلك العبوس الذي يظنونه جزءاً من الدين .

---

(١) تلبيس ابليس ، ص ١٣٦ .
(٢) صحيح مسلم .

وتتجمع هذه النزغات وكثيراً غيرها على الداعية لتردية قتيلاً — كأنها سهام تصوبها الشياطين على أجساد الدعاة لتشل من حركتهم ولتجعلها غير خالصة لله سبحانه ومن ثم لا تقبل .

التخويف بالفقر

وكما أن هذه الدعوة تحتاج إلى التضحية بالنفس لكي تنتشر كذلك فهي محتاجة إلى التضحية بالمال سواء بسواء ، ولذلك كانت البيعة التي عقدها الله مع المؤمنين متكونة من هذين العنصرين ، النفس والمال ، الذين بهما يتم انتشار دعوة الحق وانتصارها والفوز بالجنة فاذا نقض أحـــد العنصرين من البيعة كانت بيعة ناقصة .

ويأتي عدو الله هنا ليفسد هذه البيعة فيلقي بالنفس الخوف من الفقر « الشيطان يعدكم الفقر »[1] وذلك عندما يهم المسلم بالإنفاق في سبيل الله أو إذا طلب منه ذلك يوهمه بأن ذلك سينقص من ماله وانه محتـــاج لذلك المال ويعرض له الأدلة من القرآن « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها »[2] إلى آخر هذه الهمزات ، التي تجعله يعدل عن الإنفاق في سبيل الله وبذلك يفسد بيعته مع الله .

وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم جزاء المنفقين في سبيل الله والذين لا يخافون الفقر فقال : « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم

---

(١) البقرة ٢٦٨ .
(٢) البقرة ٢٨٦ .

فلوه[1] حتى تكون مثل الجبل »[2] هكذا تشربت هذه المعاني في قلوب الرعيل الأول وهكذا فهموا الإسلام حتى ينفق أحدهم كل ماله في سبيل الله عندما طلب منه المال ويسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا أبقيت لأهلك يقول أبقيت لهم الله ورسوله ، هؤلاء الذين صدقوا البيعة فنالوا من الله ما نالوا ، تقف أمامهم مداخل الشيطان وألاعيبه كأنها هباءة بل لا تساوي هباءة أمام إيمانهم الشامخ .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمهم دائماً كيف يحافظون على البيعة التي عقدوها مع الله فما أن يرى أي اعوجاج في أحد العنصرين إلاّ عدَّله فيهم ولقد دخل عليه الصلاة والسلام على بلال وعنده صبر [3] من تمر فقال : « ما هذا يا بلال ؟ قال: أعدّ ذلك لاضيافك قال : أما تخشى أن يكون لك دخان من نار جهنم ، أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا » [4] نعم أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً — أنفق يا داعية الإسلام في كل مكان ولا تخش الفقر ، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً .

فلا تخافوهم

ويوماً بعد يوم يزداد الباطل وتكثر عدته وتزداد أعداده ويبدو مرعباً ذلك الازدياد وهذه التطورات بتصنيع الأسلحة المدمرة والأجهزة الإعلامية الضخمة التي يملكها الباطل .

---

(١) الجحش او المهر فطما .
(٢) صحيح البخاري .
(٣) الطعام المجمع مثل الكومة .
(٤) رواه البزاز باسناد حسن . قال ابن حجر بالزوائد : اسناده حسن الترهيب والترغيب) .

ولربما تسرب شيء من الخوف إلى نفس المؤمن من ذلك الباطل الضخم ولكن الله يرد تلك المخاوف بقوله : « إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين »[1] .

فالمؤمن متيقن أن ذلك التضخم الذي حدث للباطل إنما هو أورام ذات غشاء رقيق مليئة بالميكروبات الخبيثة جاءت غازية لذلك الجسم السليم ، فكلما زاد حجم هذه الأورام كلما دنا أجل إنفقاعها، ويخرج ذلك القيح النتن بعد الانفقاع ، ويعود الجسم إلى حالته السليمة .

فلا يخاف إلا من الله ولا تروعه أعمال الباطل الكثيرة ما دام متمسكاً بالحق في عصبة الحق ، ويراها دائماً « كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء »[2] أما هو فليس من هؤلاء الظمآى الذين يرون السراب كأنه ماء ، وذلك بتسليمهم للمخاوف التي يلقيها الشيطان في نفوسهم فينغرس الوهن فيهم— فلا يخافهم أحد.

أما المؤمن فيرى تضخمهم أوراماً وأعمالهم سراباً ولئن حاول عدو الله تخويفه بأوليائه من الباطل تذكر قول الله تعالى : « إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » .

الاماني الكاذبة

يعد الشيطان أولياءه بأنه لا جنة ولا نار ، أو يهوّن النار على قلوبهم فلا يخافونها ولا يقدرونها حق قدرها فيجترئون على المعاصي ويمنيهم النجاة من عاقبة أعمالهم ويزرع في قلوبهم أن اعملوا ما شئتم من المعاصي فإن لكم رباً غفوراً وينسون أنه شديد العقاب .

---

(١) آل عمران ١٧٥ .
(٢) النور ٣٩ .

كما أنه يمني بعض الدعاة بملاذ الدنيا من الاولاد والتجارة وطلب الرياسة فيتركون الدعوة ويستسلمون لهذه الأماني التي تجذبهم إلى الأرض فينسون السماء ونستلذ الأمـــاني وهي مرديـــة كشارب السم ممزوجاً مع العسل [1]

« يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلاّ غروراً » [2] .

الاستهواء

عندما يلتزم الداعية بالحق ويعتز به، ليصدع في وجه الباطل عندها لا يخشى في الله لومة لائم وحينئذٍ يخاف أصحاب الباطل من أن يفضحهم لذلك يجتمعون عليه لكي لا تذهب عروشهم وهذا مما يدعوهم لأن يعرضوا عليه مفاتن الدنيا من «مال ونساء ومنصب» هدفهم أن يصرفوه عن الحق الذي استمسك به أو يقرهم على باطلهم فيصيح كل داعية مخلص في أوجههم « أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأُمرنا لنسلم لرب العالمين » [3] .

أتأمروننا أن نرجع إلى الوراء بعد أن صعدنا المرتفع – بعد أن شممنا الهواء النقي الخالي من التلوث ونكون كالذي استهوته الشياطين ؟

هذا الاستهواء هو مدخل من مداخل عدو الله إبليس ، ويتم بصورة جماعية – الشياطين تتجمع على ابن آدم لتسلبه عقله وهواه إذا ما ذاق قليلاً أو كثيراً من طعم الإيمان والعيش مع عصبة الحق ، ثم اشتاق إلى الضلال ثانية ورجع إليه بسبب ذلك الاستهواء .

---

(١) المدهش ١٥ .
(٢) النساء ١٢٠ .
(٣) الانعام ٧١ .

هذا الإنسان لم تتركه عصبة الحق فما زالت تدعوه إلى الحق « ائتنا » وما زالت الشياطين تدعوه إلى الباطل ، الأمر الذي يجعله حيران بين الدعوتين من يلبي ، أو تجعله كالكسيح لا يستطيع حراكاً لا إلى هنا ولا إلى هناك ، هذه الحيرة تلزم القلب فتجعله في عذاب نفسي شديد ، وهي أخطر مرحلة يمر بها الإنسان حيث أنه بعدها يتحدد مساره الذي يسلك فإما مع الحق وإما مع الباطل ولقد مررت بشيء من هذه المعاناة وهذه الحيرة ولم استقر ولم تبتعد تلك الذبذبات التي اخترقت قلبي عني حتى اخترت الحق لي منهجاً في الحياة . . .

الايحاء بالمجادلة

جاء رجل إلى ابن عباس فقال : يا ابن عباس ، زعم أبو إسحاق أنه أوحي إليه الليلة فقال ابن عباس : صدقت فنفرت ، وقلت يقول ابن عباس صدق ؟ فقال ابن عباس : هما وحيان وحي الله ووحي الشيطان ، فوحي الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم ووحي الشيطان إلى أوليائه ، ثم قرأ « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم »[1] . وإنهم يوحون إليهم ذلك ليجادلوا أصحاب الحق في الحق الذي معهم وليشككوا فيه لكي يتزعزع إيمان المؤمن بعقيدته « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعمتوهم إنكم لمشركون »[2] . . .

والجدل يبغضه الإسلام إلا في حالات الدعوة وتكون أيضاً مقيدة بشرط والالتزام بالأدب الإسلامي وعدم الخروج منه حيث قال الله تعالى :

---

(١) ابن كثير ، ج ٢ ص ١٧٠ .
(٢) الانعام ١٢١ .

« وجادلهم بالتي هي أحسن »[1] أما ما عدا ذلك فهو مبغوض في الإسلام لأنه غالباً ما تكون عاقبته سيئة .

كما أنه ليس من صفات الداعية المخلص الحريص على كل لحظة ولفظة في حياته أن لا تضيع هباء دون فائدة تجنى .

وكان جدالهم لأصحاب الحق في الجاهلية القديمة في أكل الميتة والشرك وان الملائكة بنات الله وان كلام الله سحر .

أما الجاهلية الحديثة فجدالهم لأصحاب الحق في عدم تناسب أحكام القرآن مع هذا التقدم الحضاري وعن القسوة في الحدود الإسلامية ، إلى ما شابه ذلك من تفاهات ، ولئن استسلم بعض الدعاة إلى تلك الحجج الواهية وأيدهم وأطاعهم ، فصل من كتيبة الدعاة وخرج من حصن الإسلام « وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » .

وجدل من نوع آخر يكون في صفوف الدعاة وصفة عدو الله ليفكك رباطهم ويزرع الكراهية بينهم ليتلهوا به ويتركوا الهدف وذلك ما يبغي عدو الله .

وهي زلات يقع بها الدعاة « فإن الإمام الأوزاعي قد أحصاها فوجدها خمس زلات قبيحات تزيد الخير قبحاً ، فقال « دع من الجدال ما يفتن القلب ، وينبت الضغينة ، ويجفي القلب ، ويرق الورع في المنطق ، والفعل » .

وهذا إثقال واضح لكفة الشمال في ميزان المتجادل ينبي عن خسارة والعياذ بالله ، خسارة يصعب معها الرجاء إذا اقترنت بلجاجة وإعجاب إذ تم حينذاك ، كما رآها التابعي بلال بن سعد فقال : : « إذا رأيت الرجل

---

(١) النحل ١٢٥ .

لجوجاً متمادياً معجباً برأيه فقد تمت خسارته » ، «قول خبير ليس بكاذب ولا مبالغ »[1] ، فلا عجب إذن من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً »[2] .

تحريم ما احل الله

ولقد لبس إبليس على أهل الجاهلية بتحريم ما أحل الله من الأنعام بسبب خرافات غرسها في قلوبهم توارثوها عن آبائهم « كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام »[3] .

---

(١) العوائق ، ص ١٨٢ .
(٢) سلسلة الاحاديث الصحيحة ، ج ١ ص ١٤٧ .
(٣) المائدة ١٠٣ .
أ ـ البحيرة : فمن الابل كانوا اذا انجبت الناقة خمسة ابطن نظروا في البطن الخامس فان كانت سقبا والسقب الذكر نحروه فأكله الرجال والنساء جميعا وان كانت انثى شقوا اذنها فتلك البحيرة وكان لبنها ومنافعها للرجال خاصة دون النساء حتى تموت فاذا ماتت اشترك في أكلها الرجال والنساء .
ب ـ السائبة : فكان الرجل يسيب من ماله ما يشاء من الحيوان وغيره فيجيء به الى السدنة والسدنة خزنة آلهتهم فيدفعه اليهم فيقبضونه منه فيطعمون منه ابناء السبيل الرجال دون النساء ويطعمون منه لآلهتهم الذكور دون الاناث حتى يموت اذا كان حيوانا فاذا مات اشترك فيه الرجال والنساء .
ج ـ الوصيلة : فهي الشاة كانت اذا ولدت سبعة ابطن عمدوا الى البطن السابع فاذا كان ذكرا ذبحوه وأكله الرجال والنساء جميعا وان كانت انثى لم تنتفع النساء منها بشيء حتى تموت فاذا ماتت كان الرجال والنساء يأكلونها جميعا وان كان ذكرا وانثى ببطن واحد قيل وصلت اخاها فيتركان مع اخواتها فلا يذبحان وكان الرجال دون النساء حتى يموتا فاذا ماتا اشترك في أكلهما الرجال والنساء .
د ـ الحام : فهو الفحل اذا ركب ولد ولده قيل حمى ظهره فيترك ولا يحمل عليه شيء ولا يركب ولا يمنع من ماء ولا رعي فاذا أدركه الهرم او مات أكله الرجال والنساء جميعا .

وعندما جاء الإسلام بتعاليمه السمحة والقوم حديثو عهد بالجاهلية ، كان ليس غريباً أن يفهم البعض ، بعض التعاليم فهماً خاطئاً ، فحرم فئة على أنفسهم بعض ما أحل الله ، ظناً منهم أن ذلك قربة إلى الله ، وكان القائد الرسول صلى الله عليه وسلم يسمع هذه التصورات الغريبة عن روح الإسلام فكان يسد ذلك المدخل الشيطاني ويعدل الإعوجاج ، ففي الصحيحين عنه بلغه أن رجالاً قال أحدهم: أما أنا فأصوم ولا أفطر، وقال الآخر أما أنا فأقوم لا أنام ، وقال الآخر : أما أنا فلا أتزوج النساء ، وقال الآخر : أما أنا فلا آكل اللحم - فقال صلى الله عليه وسلم: «لكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وأتزوج النساء وآكل اللحم، فمن رغب عن سنّتي فليس مني».

وقد قال الله تعالى : « كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين »[1] هذا المدخل وقع فيه كثير من الشباب الصالح الذي خفي عليه هدى الرسول صلى الله عليه وسلم الذي هو خير الهدى « وكان خلقه في الأكل أنه يأكل ما تيسر إذا اشتهاه ، ولا يرد موجوداً ، ولا يتكلف مفقوداً ، فكان إن حضر خبز ولحم أكله ، وأن حضر فاكهة وخبز ولحم أكله ، وإن حضر تمر وحده أو خبز وحده أكله ، وإن حضر حلو أو عسل طعمه أيضاً ، وكان أحب الشراب إليه الحلو البارد ، وكان يأكل القثاء بالرطب، فلم يكن إذا حضر لونان من الطعام يقول : لا آكل لونين ، ولا يمتنع عن طعام لما فيه من اللذة والحلاوة » .

وأما مجرد تعذيب النفس والبدن من غير منفعة راجحة ، فليس هذا مشروعاً لنا ، بل أمرنا الله بما ينفعنا ونهانا عما يضرنا وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « إنما بعثتم ميسرين ولم تُبعثوا معسرين » وقال لمعاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن «يسِّرا ولا تعسِّرا،وبشِّرا ولا تنفِّرا » وقال « هذا الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلاّ غلبه ، فاستعينوا بالغدوة

---

(١) الانعام ١٤٢ .

والروحة وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا »[1] أما تحريم ما أحل الله بعذر مجاهدة النفس فهذا ليس من الحنيفية السمحة بشيء وهو أقرب إلى الرهبانية ولا رهبانية في الإسلام وهو مدخل من مداخل الشيطان فليحذره جمهور الدعاة .

غرس اليأس

قال علي بن طلحة عن ابن عباس قال :

« نزل النبي صلى الله عليه وسلم حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة وعصة وأصاب المسلمين ضعف شديد وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله وقدغلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون مجنبين ؟ فأمطر الله عليهم مطراً شديداً فشرب المسلمون وتطهروا وأذهب الله عنهم رجز الشيطان »[2] .

يقول لهم : « وأنتم تصلون مجنبين » ومتى كان العدو ناصحاً ؟ إنما هو ذلك التخطيط الشيطاني لغرس ذلك اليأس في قلوب عصبة الحق ومن الطبيعي إنه يدخل إليهم من ذلك المدخل الإيماني لكي يسهل عليه غرس اليأس وإلا اكتشفوه « وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الاقدام »[3] .

---

(١) فتاوى ابن تيمية ــ المجلد الثاني والعشرون .
(٢) ابن كثير ــ تفسير ، ج ٢ ص ٢٩١ .
(٣) الانفال ١١ .

وكل هزيمة لا بد وأن يسبقها هزيمة نفسية في قلوب المقاتلين عندئذ لا يكون للسلاح قيمة ولولاها لأصبح النصر متعذراً لكلا الجانبين ـ هذا وقد حاول الشيطان أن يلقي في قلوب أهل بدر قبل لقائهم بعدوهم . . .

وقد يلقي في نفوس بعض الدعاة ــ كيف تنتصرون والجاهلية تملك ما تملك وأصحاب الحق قليلون وقد مرت سنون ولم يحدث تغيير وكلما خرجتم من السجون عدتم إليها ــ إلى متى هذه الغربة .

هذا اليأس من النصر يدعو ذلك الداعية للتهور والتصرف الفردي مما يضع الدعوة في موضع بالغ الخطورة ــ ذلك لأن الدعوة كأنها السفينة التي تكلم عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم تسير في محيطات الجاهلية العميقة وعليها عصبة الحق فإن أخطأ أحدهم وأراد أن يثقب ثقباً في أسفل السفينة ليحصل على الماء بسرعة ليوفر عليه وقت الصعود إلى الأعلى وجلب المــاء كما يظن، غرق وغرقوا جميعاً، هذه الكارثة كلها تكون بسبب ذلك التصرف الفردي من أحد أفراد الدعوة الذي وضع إبليس اليأس في قلبه .

« إن بعض النفوس تستلذ اليأس ، وتعشق الظلام ، ولكن الأمل من حولها واسع والنور غامر ، ولذلك وجبت هذه الربتة الخفيفة على كتف المطرق المطأطىء الملتفت ، تنبهه إلى سكينة قريبة منه لو تناوش وهالة جميلة فوقه لو رفع رأسه ونظر، وهل هناك أسطع من هالة شمس هذه الدعوة التي هو فيها، وأنصع بياضاً، وأشد لألأة؟ »(١) . .

ولا بد أن توجد مثل هذه النوعيات التي تستلذ اليأس وتستسلم لنداء الشيطان في كل دعوة . . .

---

(٢) العوائق ، ص ٢٨٠ .

ولقد كان الإمام البنا عليماً بالدعوة فقيهاً بالنفوس ، ولا يفوت من يملك هذا الفقه ، إن في الجماعة فئة معرضة لهذا المدخل الشيطاني الخطير ، لذلك نادى هذه الفئة : لا تيأسوا فليس اليأس من أخلاق المسلمين ، وحقائق اليوم أحلام الأمس ، وأحلام اليوم حقائق الغد ولا زال في الوقت متسع ، ولا زالت عناصر السلامة قوية عظيمة في نفوس شعوبكم المؤمنة رغم طغيان مظاهر الفساد ، والضعيف لا يظل ضعيفاً طول حياته ، والقوي لا تدوم قوته أبد الآبدين : « ونريد أن نمن على الذين استُضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض »[1] .

إن اليأس سلاح صغير من الأسلحة التي يستخدمها عدو الله في حربه مع الحق وانه لا يقارن بتلك الأسلحة الثقيلة التي يستخدمها الشيطان في معركة الاستفزاز والجلب .

الاستفزاز

معركة هائلة ، الغبار متطاير ، الرؤية تكاد أن تكون معدومة وأصوات الشياطين في كل مكان تنادي للباطل وتدعو إليه . . .

أصوات كثيرة لا حصر لها من تشكيك في القرآن وأفكار مستوردة ضالة وآراء شاذة ودعوات للإباحية وأغان هابطة .

نعيق مزعج ينادي في كل مكان على هذا الكوكب « القضاء القضاء على الحق » ، « واستفزز من استطعت منهم بصوتك »[2] .

---

(١) مجموعة الرسائل ــ رسالة المؤتمر الخامس ، ص ٢٩٨ .
(٢) الاسراء ٦٤ .

وخيول في كل مكان من أرض المعركة ـ خيول الباطل ـ تملأ الساحة تقدح الأرض بسنابكها وتعدو وتضج في صهيل عال للقضاء على الحق .

خيول مختلفة الأشكال والألوان من كتب وأفلام وخمور وميسر ومجلات وصحف ورجال باعوا أنفسهم للباطل والدعـوة إليه رافعـين أسلحتهم واضعين أصابعهم على الأزندة موجهينها للحق يريدون القضاء عليه « واجلب عليهم بخيلك ورجِلِكَ »[1] .

هذه هي معركة الحق والباطل على مدار الزمان و « هو تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول فهي المعركة الصاخبة تستخدم فيهـا الأصوات والخيل والرجال على طريقة المعارك والمبارزات يرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة أو يستدرجهم للفخ المنصوب والمكيدة المدبرة فإذا استدرجوا إلى العراء أخذتهم الخيل وأحاطت بهم الرجال »[2] .

ولقد أثَّرت قنابل هذه المعركة فشوهت وجوهاً وأنارت وجوهاً وأماتت نفوساً وأحيت نفوساً ، ومن آثار هذا التشويه ، مشاركة الباطل في الأموال والأولاد.

المشاركة

وفي هذا المدخل يأمر الشيطان الناس بالإنفاق في معصية الخالق فكل ما ينفق على الميسر والخمر والبغي والكتب الضالة أو إعانة العدو للقضاء على المسلمين والربا والغش وغيره يعتبر مشاركة للشيطان في الأموال .

---

(١) الاسراء ٦٤ .
(٢) الظلال ، ج ٤ ، ص ٢٢٣٩ .

ويسعى عدو الله للمشاركة بالأولاد بأن يجعلهم يسمون أولادهم بما لا يرضي الله كعبد العزى وعبد اللات بالماضي والآن عبد الحسن وعبد الحسين وعبد علي وعبد محمد إلى آخر هذه الأسماء أو يجعلهم يدخلون أبناءهم بغير الدين الذي ارتضاه الله أو بالزنا بأمه أو قتله أو وأده ، وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فانه أن يقــدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً » .

أما المؤمن فيرفض ابتداء أن يشارك الشيطان في كل شيء فهو يعلن المفاصلة في كل صلاة عندما يطلب من الله أن لا يجعله من المغضوب عليهم ولا الضالين ويعلنها قبل أن يأوي إلى فراشه في صلاة الوتر عندما يقرأ سورة الكافرون ذلك لأنهم لا تصلهم سهام إبليس وهم في حصون الله المنيعة . . . « وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً . . . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً »[1] !

والمشاركة هي بداية ثم يعقبها الاستيلاء الكامل على الأموال والأولاد فتكون الأموال كلها في سبيل الطاغوت والأولاد يتحولون إلى شياطين الإنس ومن ثم يستخدم هؤلاء الشياطين في تفكيك الأسرة التي هي لبنات المجتمع وأكثر ما يسعى إلى تفكيك الأسر الصالحة لأنها تعمل ضده في تلك المعركة الخالدة .

---

(١) الاسراء ٦٤ .

تفكيك الأسرة

ولقد علم يوسف عليه السلام في نهاية المطاف هذا المدخل عندما « رفع أبويه على العرش وخروا له سجداً »[1] قال مخاطباً أباه : «هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم »[2] .

هذا هو شأنه دائماً تفكيك كل شيء يتجمع لأن بالجمع قوةوبالانفراد ضعفٌفهو يحب أن يقود الناس جميعاً إلى الهاوية — فأكثر ما يهمه هو تفكيك الأسرة — هذا هو الذي يهدده ، ويهدد باطله وخاصة إذا صلح — قال صلى الله عليه وسلم : « إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال فيدنيه منه ويقول نعم أنت »[3] .

وإذا تحطمت هذه الخلايا الطيبه تحطم المجتمع وتفكك وهذا ما نراه في هذا الزمان — لقد فككت معظم الأسر — الأمر الذي سبب هذا التفكك في المجتمع كله — ذلك بأنه يثير الفتنة بين وحداتها فينفخ الكبرياء في بعضهم ليجعله يتعالى ويتجبر على الآخرين — وهل يصمت الآخر على هذا التصرف الشاذ ؟ وينفخ نفخة الحسد في قلب أحدهم فيشتعل ناراً ملتهبة في وجه أخيه لا يحبه ويتمنى له كل شر — وعندما يشعر الآخر بهذا التصرف الشاذ هل يصمت ؟ إنه يهمز

---

(١) و (٢) يوسف ١٠٠ .
(٣) مسلم .

وينفخ وينفث بين أفراد الأسرة الواحدة لكي يذيب تلك المادة التي تلصقهم ببعض .

والداعية الصادق هو الذي يشعر بهذه اللعبة الخطيرة والمدخل الخبيث ومن ثم فهو يعالجه معالجة ناجحة تنبع من الإيمان — لا يتبع رغبة نفسه بحب الانتقام للنفس إذا صادف معاملة شاذة أو تصرفاً غريباً من أحد أفراد الجماعة الصالحة ، إنما يعامله دائماً معاملة المؤمن الواعي ليبين مدى خطورة حركة إبليس التي تهدف إلى تحطيم الخلايا ثم المجتمع كله - ولا يغضب أبداً إلّا لله وهكذا فعل يوسف عليه السلام لم ينتقم ولم يغضب والله هو الذي سير الأمور كما يحب ويرضى . . .

الغضب

دخل موسى عليه السلام المدينة فوجد رجلان يقتتلان أحدهما من بني إسرائيل والآخر قبطي فاستغاثه الذي هو من قومه وهو الإسرائيلي على عدوه ، وهنا تدخل عدو الله ليلقي الغضب في نفس موسى ، فما أن دعاه صاحبه واستنصره حتّى هوى بقبضة يديه على القبطي فصرعه — ولم تكن فترة تفكير أو تأني من موسى — إنما ضرب عدوهما بمجرد استغاثة صاحبه به « فاستغاثه الذي هو من شيعته على الذي من عدوه فوكزه »[1] .

وبعد أن رأى موسى القبطي قتيلاً أدرك أن ذلك من عمل الشيطان فقال : « هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين »[2] .

---

(١) و (٢) القصص ١٥ .

إذن فالغضب نوعان: غضب لله وهذا من ثمرات الإيمان إذ أن الذي لا يغضب لله إذا انتهكت محارمه يكون إيمانه ضعيفاً. . .

والغضب الآخر : الغضب لغير الله كأن يكون للنفس أو الجنس أو الوطن أو العشيرة الخ، وهذا النوع الثاني من الغضب هو الذي يسببه عدو الله وهو مدخل من مداخله إذ به تحدث الجرائم وتتفكك الأسر ويضعف الإيمان وتضعف رابطة الأخوة بالله فهو شر تنبع منه شرور كثيرة لذلك لم يكن غريباً عندما قال رجل للرسول صلى الله عليه وسلم : « أوصني قال : « لا تغضب » فردد مراراً ، قال لا تغضب »[1] وهو الرسول الذي أوتي مجامع الكلم يردد كلمة لا تغضب ثلاث مرات، دلالة على حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يبين الحجم الضخم لهذا المدخل الشيطاني. . .

وليس الغضب مقياساً للقوة كما يزينه الشيطان للبعض فيغضب ليرى الناس أنه شديد ذو بأس . إنما الشدة تقاس بمقدار ما تملك النفس عند الغضب كما بين الرسول صلى الله عليه وسلم عندما قال : « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »[2] .

ولقد ربى الإمام الشافعي نفسه على هذه المعاني خير تربية ، ورجل بمنزلته يتعرض للنقد والمجادلة والشتائم من الذين لم يتربوا تربيـة الإسلام والذين طغت عليهم أهواؤهم ، ولكنه يستقبل حماقة هؤلاء بصدر رحب، صدر الداعية المربي مطبقاً قاعدة قائده الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :

يخاطبني السّفيــه بكل قبح فأكره أن أكون له مجيبا
يزيد سفاهــة فأزيــد حلماً كعود زاده الإحراق طيبا[3]

---

(١) و (٢) البخاري .
(٣) ديوان الشافعي .

والغضب ليس مقياساً لاكتساب احترام الناس كما يزينه الشيطان للبعض، والداعية الصادق لا يقابل سفاهة السفهاء بكلام بذيء وغضب سافر، إنما يقابلهم بالحلم الذي قابلهم به الشافعي لأنهم مرضى وهو الطبيب النفسي، وليس من آداب الطب الغضب من تصرفات المرضى وشتائمهم بسبب الأمراض المزمنة التي سكنت في قلوبهم. . .

وقد يدخل عدو الله من مدخل آخر فيخلط الغضب لله بالغضب للنفس، وهنا على الداعية أن يقف ويسأل نفسه وليكن صريحاً معها – أهذا الغضب لله أم للنفس ؟

والمثال على ذلك. . . إذا نصحك أحد الناس نصيحة ووجدت في هذه النصيحة غلظة عليك أن تكون حليماً ولو كان أقل منك علماً أو سناً.

وهنا يطرح السؤال نفسه ، بعد الانفعالات التي داخلتك وبعد الوساوس التي طرحها عدو الله في قلبك وأشعل النار تحت الأثافي ليزيدك حرارة ويشعلك غضباً . . . هل سترضى بالنصيحة وتبتسم ابتسامة القبول وتقول له جزاك الله خيراً ، أم ستثور لنفسك ويخدعك الشيطان قائلاً لك « علمه كيف ينصح » وأنت بذلك تبغي الانتصار للنفس – فإن كان الآخر فاستغفر لذنبك وإن أصررت إلا الانتصار للنفس فاعلم أن الشيطان قد انتصر عليك هـذه المرة فانهض من عثرتك ولا تكن من الذين يرضون بالهزيمة .

وبما أن الغضب أحد العوامل التي تفكك الجماعة المسلمة وذلك ما يداخل نفوس الغاضبين من حب الهجر والقطيعة وحفاظاً على وحدة الأسلوب يستخدم إبليس مدخلاً آخر مختلف اللون ولكنه يؤدي إلى نتيجة واحدة ألا وهو :

الانهماك بالمزاح :

ولعل المزاح من أكبر الوسائل التي يستخدمها إبليس في التفريق بين الأحبة لتفكيك الصفوف .

والمزاح على ضربين : مـزاح محمود . ومزاح مذموم .

فالمزاح المحمود ما كان « لا أذى فيه ولا ضرر ولا قذف ولا غيبة ولا شيء في عرض أو دين ولا استخفاف بأحد منهم » (١) .

ومن أمثلة هذا المزاح ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم للرجل الذي جاء إليه يطلبه أن يحمله على حمولة فقال له :

« أنا حاملك على ولد ناقة . فقال : يا رسول الله وما أصنع بولد ناقة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وهل تلد الإبل إلاّ النوق » (٢) . . .

ويكون المزاح مذموماً إذا تحقق فيه أحد شرطين ، الانهماك والفحش فيه.

أمـا الانهماك فيه فإنه « يسقط الحشمة ويقلل الهيبة والفحش فيه يورث الضغينة ويحرك الحقود الكمينة لأنه يجر حينئذ إلى ترك التحرز والاحتياط من الهجر » (٣) .

أكرم جليسك ، لا تمازح بالأذى   إن المزاح ترى به الأضغان
كم من مزاح جذ حبـــل قرينه   فتجذمت من أجله الأقران (٤)

وأي شيء يريد إبليس أكثر من غرس الضغينة في القلوب وتفكيك العلاقات الوثيقة ، وخاصة تلك التي قامت على منهج الحق ، على الحب في الله . . .

ولئن كان الداعية من النوع الحذر الذي يعرف حق المعرفة ما يؤول إليه الانهماك بالمزاح فإن إبليس يدخل له من مداخل أخرى ، عله يزل بأحدها ، ومن هذه المداخل أغراؤه بالنجوى .

---

(١) الادب المفرد ، ج ١ ص ٣٥٦ .
(٢) البخاري في الادب المفرد ، ج ١ ص ٣٥٩ .
(٣) الادب المفرد ، ج ١ ص ٣٥٦ .
(٤) روضة العقلاء ، ص ٧٨ .

النجوى :

النجوى نوعان : نوع يكون بين اثنين دون ثالث ، ونوع يكون بين جزء من الجماعة دون الجماعة أو دون القيادة . . .

الأول: ما أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه » (١) . . .

والنوع الثاني: ذكره القرآن الكريم « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم اين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شيء عليم » (٢). وقوله : « يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول » (٣) .

والهدف الرئيسي من كلا النوعين هو إحزان المؤمنين كما قال تعالى : « إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله » (٤) .

وهو مدخل له خطورته على الجماعة الإسلامية ، ولقد اختاره عدو الله بخبث ليفكك الجماعة الإسلامية ، يقول صاحب الظلال معلقاً حول النوع الثاني من النجوى « ويبدو أن بعض المسلمين ممن لم تنطبع نفوسهم بعد بحاسة التنظيم الإسلامي كانوا يتجمعون عندما تحزب الأمور ليتناجوا فيما بينهم ويتشاوروا بعيداً عن قيادتهم ــ الأمر الذي لا تقره طبيعة الجماعة الإسلامية وروح التنظيم الإسلامي التي تقتضي عرض كل رأي وفكرة وكل اقتراح

---

(١) الصحيحين .
(٢) المجادلة ٧ .
(٣) المجادلة ٩ .
(٤) المجادلة ١٠ .

على القيادة ابتداء ، وعدم التجمعات الجانبية في الجماعة . كما يبدو أن بعض هذه التجمعات كان يدور فيها ما قد يؤدي إلى البلبلة وما يؤذي الجماعة المسلمة ولو لم يكن قصد الإيذاء قائماً في نفوس المتناجين – ولكن مجرد إثارتهم للمسائل الجارية وإبداء الآراء فيها على غير علم ما قد يؤدي إلى الإيذاء وإلى عدم الطاعة .

إن رؤية المسلمين للوسوسة والهمس والانعزال بالحـــديث تبث في قلوبهم الحزن والتوجس وتخلق جواً من عدم الثقة وإن الشيطان يغري المتناجين ليحزنوا نفوس إخوانهم ويدخلوا إليها الوساوس والهموم .

ويطمئن المؤمنين بأن الشيطان لن يبلغ فيهم ما يريد ، فأما حيث تكون هناك مصلحة في كتمان سر أو ستر عورة في شأن عام أو خاص فلا مانع من التشاور في سر وتكتم وهذا عادة بين القادة المسئولين عن الجماعة »[1] .

وهذا ما عناه القرآن « وتناجوا بالبر والتقوى »[2] . والذي يدعو هؤلاء إلى النجوى هو ظن السوء بمن يتناجون حوله وعلى ذلك فإن الشيطان يستزلهم فيوقعهم في مرض قلب كريه ألا وهو ظن السوء بالمسلمين .

ظن السوء :

ومن المسلمين من يتلذذ بسوء الظن بأخيه فيتهمه بما ليس فيه اتباعاً لما يلقي الشيطان في قلبه ، ولا يتبين ولا يتثبت وإنما يطلق الحبل على غاربه للشيطان يلعب به كيفما يشاء . . .

وهذا المرض من أخطر الأمراض في الجماعة المسلمة ، إذا تفشى نشأت عنه الأحقاد والنفاق والكراهية بين صفوف الجماعة الواحدة ولذلك شدد

---

(١) الظلال ، ج ٦ ص ٣٥١٠ .
(٢) المجادلة ٩ .

القرآن الكريم على إزالة هذا المرض الفتاك فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن أثم » [1] .

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا وتناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا » [2].

« فالظن هنا وفي الآية هو التهمة ، ومحل التحذير والنهي إنما هو تهمة لا سبب لها يوجبها كمن يتهم بالفاحشة أو يشرب الخمر مثلاً ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك ودليل كون الظن هنا بمعنى التهمة قوله تعالى « ولا تجسسوا » وذلك أنه قد يقع له خاطر التهمة ابتداء ويريد أن يتجسس ليعرف خبر ذلك ويبحث عنه ويتبصر ويستمع لتخفيف ما وقع له من تلك التهمة . فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك » .

وإن شئت قلت : والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها — إن كل ما لم تعرف له إمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حراماً واجب الاجتناب.

وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح وأونست منه الأمانة في الظاهر فظن الفساد به والخيانة محرم بخلاف من اشتهر عند الناس بتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث .

ولقد أنكر الحسن البصري على قوم أباحوا الظن في زمانه فقال : « كنا في زمن الظن بالناس فيه حرام وأنت اليوم في زمن أعمل واسكت وظن في الناس ما شئت » .

وللظن حالتان : « حالة تعرف وتقوى بوجه من وجوه الأدلة فيجوز

---

(١) الحجرات ١٢ .

(٢) لفظ البخاري .

الحكم بها وأكثر أحكام الشريعة مبنية على غلبة الظن ، كالقياس وخبر الواحد وغير ذلك من قيم المتلفات وأروش الجنايات والحالة الثانية أن يقع في النفس شيء من غير دلالة فلا يكون ذلك أولى من ضده فهذا هو الشك ، فلا يجوز الحكم به وهو المنهي عنه على ما قررنا آنفاً »[1] .

وخير للدعاة إلى الله أن يتركوا الظنون السيئة كلها ويشتغلوا بما يعود عليهم بالخير في دينهم ودنياهم وآخرتهم وألا يضيعوا أي دقيقة هباء لئلاّ يندموا عليها يوم الحساب عندما تعرض الأعمال ، « فلا يتركوا نفوسهم نهباً لكل ما يهجس فيها حول الآخرين من ظنون وشبهات وشكوك. وتعليل هذا الأمر « إن بعض الظن إثم » وما دام النهي منصباً على أكثر الظن والقاعدة إن بعض الظن إثم فإن إيحاء هذا التعبير للضمير هو اجتناب الظن السيء أصلاً لأنه لا يدري أي ظنونه تكون إثماً ، بهذا يطهر القرآن الضمير من داخله لئلا يتلوث بالظن السيء ، فيقع في الإثم بل يدعه نقياً بريئاً من الهواجس والشكوك ، أبيض يكنّ لإخوانه المودة التي لا يخدشها ظن السوء والبراءة التي لا تلوثها الريب والشكوك والطمأنينة التي لا يعكرها القلق والتوقع . وما أروع الحياة في مجتمع بريء من الظنون »[2] .

ومن التزم طريق الظن وأبى أن يزكي نفسه عنه فإن ذلك يوصله حتماً إلى طريق أظلم منه ، فيه مستنقعات اتخذتها الحشرات مسكناً فأبى إلاّ أن يخوض فيها ويدنس قدميه ــ ذلك هو طريق الغيبة .

---

(١) القرطبي ، ج ١٦ ص ٣٣٢ .
(٢) الظلال ، ج ٦ ص ٣٣٤٥ .

الغيبة

ويدور الشيطان حول الإنسان لينفث من وساوسه في قلبه ويوهمه أنه لا شيء في أخذ الغيبة ما دام ذلك لإزالة المنكر ورد العاصي إلى الصواب، ولو كان الأمر كذلك لهان كل شيء ولكنه لا يلتزم بهذا الشرط مبدأ يرتكز عليه عند أخذه للغيبة - فنراه يغتاب كل من يخالفه في رأي أو فكرة وكأنه يأكل من لحمه وهو ميت كما قال الله تعالى: «ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه»[1].

ولقد قالت عائشة رضي الله عنها للرسول صلى الله عليه وسلم « حسبك من صفية كذا وكذا — تعني قصيرة — فقال : « لقد قلت كلمة لو مزجت بها البحر لمزجته »[2] الله أكبر كلمة واحدة مزجت البحر فما بال ذلك الصنف من الدعاة الذين يغتابون مخالفيهم بالرأي وبالفروع بكلمات وليست بكلمة واحدة ، ويا ليتها بمستوى « قصيرة » .

قال الحسن : « الغيبة ثلاثة أوجه كلها في كتاب الله تعالى : الغيبة والإفك والبهتان . فأما الغيبة فهو أن تقول في أخيك ما هو فيه وأما الإفك فأن تقول ما بلغك عنه . وأما البهتان فأن تقول فيه ما ليس فيه »[3] .

ولقد عرفها رسول الله صلى الله عليه وسلم تعريفاً نجعله قاعدة لنا تخلصنا من التأويلات الملتوية — قال صلى الله عليه وسلم :

« أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : ذكرك أخاك بما

---

(١) الحجرات ١٢ .
(٢) صحيح الجامع الصغير ، ج ٥ ص ٣١ .
(٣) القرطبي ، ج ١٦ ص ٣٣٥ .

يكره قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته »[1] ولقد فسر الإمام النووي « ذكرك أخاك بما يكره » تفسيراً مفصلاً قال : « سواء ذكرته بلفظك أو في كتابك أو رمزت أو أشرت إليه بعينك أو يدك أو رأسك وضابطه : كل ما أفهمت به غيرك نقصان مسلم فهو غيبة محرمة »[2] .

ونوع آخر من الغيبة لا يشعر به الكثير سماه الإمام النووي « غيبة المتفقهين والمتعبدين » قال : « فإنهم يعرضون بالغيبة تعريضاً يفهم به كما يفهم بالصريح ، فيقال لأحدهم : كيف حال فلان ؟ فيقول الله يصلحنا ، الله يغفر لنا ، الله يصلحه ، نسأل الله العافية ، نحمد الله الذي لم يبتلينا بالدخول على الظلمة ، نعوذ بالله من الشر ، الله يعافينا من قلة الحياء ، الله يتوب علينا ؛ وما أشبه ذلك مما يفهم منه تنقصة فكل ذلك غيبة محرمة وكل هذا معلوم من مقتضى الحديث عن صحيح مسلم وغيره في حد الغيبة والله أعلم »[3] . . .

ولسنا بصدد آكلي اللحوم الميتة فحسب ولكن بصدد أولئك الذين يشاركونهم بالأكل ونقصد بذلك السماعين للغيبة .

فلا ينبغي لمن يسمع غيبة مسلم أن يشجع المغتاب بسماعه منه وإظهار التجاوب معه ، بل عليه أن ينصحه بالإقلاع عن هذه الخصلة واستبدال ذلك بمجالس الساعات الإيمانية . . .

وحرصاً من الرسول صلى الله عليه وسلم على تكوين الأخوة بأسمى معانيها ، لم يغفل ذلك الجانب فقال : « من رد عن عرض أخيه ، رد الله

---

(١) مسلم .

(٢) الاذكار ، ص ٣٠٠ .

(٣) الاذكار ، ص ٣٠٠ — ٣٠١ .

عن وجهه النار يوم القيامة »[1] وقال : « من رد عن عرض أخيه كان له حجاباً من النار »[2] . . . أفلا تحب أن ترد عن وجهك النار يوم القيامة ويكون لك حجاباً من النار ؟ ؟

وتنشأ عن هذه الظلمات ظلمة أخرى مساوية لها بالظلمة ، حتى أنه يصعب التمييز بينهما لشدة التشابه ، تلك هي ظلمة تصيد أخطاء الآخرين . . .

تصيد العيوب

وهي إحدى مداخل إبليس يوهمه أن ذلك من النهي عن المنكر فيولع به حتى تكون له هواية فما أن يرى عيباً في شخص ما حتى يذيعه ويشهر به بين الناس ، يترصد كلماته ويتلقف سقطاته ، كأن كل همه هو البحث عن عيوب الناس ــ قال الإمام ابن الجوزي :

« ومن تلبيس إبليس على المنكر أنه إذا أنكر جلس في مجمع يصف ما فعل ويتباهى به ويسب أصحاب المنكر سب الحنق عليهم ويلعنهم ، ولعل القوم قد تابوا وربما كانوا خيراً منه لندمهم وكبره ، ويندرج في ضمن حديثه كشف عورات المسلمين لأنه يعلم من لا يعلم ، والستر على المسلم واجب مهما أمكن »[3] ، وإن لم يرَ عيباً من خلال كلامه معهم فإنه يذهب يتصفح الكتب ويمسك قلماً يخط به خطوطاً تحت العبارات التي يظنها خطأً ، أخطاء يظنها ، وهي ليست بأخطاء عند غيره ، ليس ذلك بسبب علمه وجهلهم ،

---

(١) و (٢) صحيح الجامع الصغير ، ج ٥ ص ٢٩٥ .
(٣) تلبيس ابليس ، ص ١٦٥ .

إنما ذلك بسبب سوء ظنه وحسن ظن الآخرين ، تجده يؤول كل كلمة يسمعها أو يقرؤها تأويلاً سيئاً .

وهذه فئة ليست حديثة إنما هي قديمة قدم الزمان فلقد حذر الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه هذه الفئة في عهده من هذا المدخل الشيطاني وسدد السهم في الهدف عندما ذكر لهم سبب هذا المرض وهو الغفلة عن عيوب النفس فقال : « يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه وينسى الجذع أو الجذل في عينه »[1] . . . وأدركها الإمام الحافظ ابن حبّان وجعل هذه الصفة تنافي صفات العاقل وجعل تركها من واجباته فقال : « الواجب على العاقل لزوم السلامة بترك التجسس عن عيوب الناس مع الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه ، فإن من اشتغل بعيوبه عن عيوب غيره أراح بدنه ، ولم يتعب قلبه ، فكلما اطلع على عيب لنفسه هان عليه ما يرى مثله من أخيه وان من اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عمى قلبه وتعب بدنه وتعذر عليه ترك عيوب نفسه وان من أعجز الناس من عابَ الناس بما فيهم وأعجز منه من عابهم بما فيه ، من عاب الناس عابوه »[2] . . . وكان للشعراء نصيب كبير في هذه الحملة لاقتلاع هذا الداء من نفوس الدعاة إلى الله فقال قائلهم :

إذا أنت عبت الناس عابوا وأكثروا ... عليك ، وأبدوا منك ما كان يستر
وقد قال في بعض الأقاويل قائـــل ... له منطق فيـــه كلام محبر
إذا ما ذكرت الناس فاترك عيوبهم ... فلا عيب إلاّ دون ما منك يذكر
فإن عبت قوماً بالذي ليس فيهم ... فذلك عند الله والناس أكبر
متى تلتمس للناس عيباً تجد لهم ... عيوباً ، ولكن الذي فيك أكثر
فسالمهم بالكف عنهــم فانهــم ... بعيبك من عينيك أهدى وأبصر

(١) الزهد لأحمد ، ص ١٧٨ .
(٢) روضة العقلاء ، ص ١٢٥ .

ولا يعني هذا أن يركن الداعية إلى الله ، لا ينكر على الفاسقين وأصحاب الغفلة منكراتهم ، إنما هناك فرق واضح بين إنكار المنكر ودرجاته الثلاثة ، باليد أو باللسان أو بالقلب ، وبين هواية تصيد العيوب التي ذكرناها . . .

فمتى سعى الداعية إلى تنقية نفسه من العجب بالنفس واحتقار أصحاب المعاصي والتشهير بهم وغفلته عن عيوب نفسه وسوء الظن بكلام الآخرين ، كان هو الداعية الذي أراده الله ويكون عمله كله مباركاً موفقاً بإذن الله ، أما ان تلكأ في تنقية نفسه من هذه العيوب فليعلم أنه من هذه الزمرة .

تزيين الشيطان الأصغر :

وتزيين الشيء أي تغيير الشيء من صورته الحقيقية إلى صورة أخرى بإضافة بعض الأشياء إلى الصورة الحقيقية ؛ فتزيين الشيطان للباطل يتم بإضافة الشهوات ليبدو الباطل بصورة جميلة غير صورته الحقيقية ، وذلك ما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات »[1] .

« فكأنه قال : لا يوصل إلى الجنة إلاّ بارتكاب المشقات المعبر عنها بالمكروهات ، ولا إلى النار إلا بتعاطي الشهوات ، وهما محجوبتان فمن هتك الحجاب اقتحم »[2] والشهوات هنا هي الزينة التي يستخدمها إبليس ليصطاد بها بني آدم ليهتكوا ذلك الحجاب فيقعون في النار .

وتزيين الشيطان الأصغر هو الذي يطبقه على فرد أو مجموعة في أماكن وأزمنة مختلفة.ويزيد هذا التزيين وينقص من فرد لآخر ومن مجموعة لأخرى ،

---

(١) متفق عليه ، كتاب صفة الجنة .
(٢) الفتح ، ج ١١ ص ٣٢٠ .

وأكثر من زين عليه الشيطان سوء عمله من الأفراد كما يذكر القرآن الكريم هو فرعون ، إذ لم يجرؤ مخلوق قبله أن يقول : « أنا ربكم الأعلى » [1] . . .

وكذلك السامري الذي صنع لبني إسرائيل من حليهم عجلاً له خوار يعبدونه من دون الله .

وأبو جهل الذي عاش يحارب الإسلام ونبيه حتى آخر قطرة من دمه . . . وماركس مؤسس الشيوعية ، المبدأ القائم على إنكار وجود الله الذي ما يزال ينتشر وباؤه في أقطار العالم أجمع .

ولينين وهتلر وكمال أتاتورك وغيرهم كثير .

والعلة في هذا المدخل هي أن الشيطان يري هذه الجماعة أو هذا الفرد أن عمله هو الصحيح وأعمال الآخرين خاطئة أو أن يريه أن رأيه هو الصواب وآراء الآخرين غير صائبة مما يجعله يعمل بالذي يراه صحيحاً فيقع في الخطأ ... كأن يرى ماركس أن فكرة الدين فكرة خاطئة ذلك لأنه يخدر الشعوب ويمنعها من التقدم فينفي فكرة وجود الله .

« ولقد تدفع الحماسة أصحاب الدعوات بعد الرسل والرغبة الملحة في انتشار الدعوات وانتصارها إلى استمالة بعض الأشخاص أو بعض العناصر بالإغضاء في أول الأمر عن شيء من مقتضيات الدعوة . يحسبونه هم ليس أصيلاً فيها ومجاراتهم في بعض أمرهم كي لا ينفروا من الدعوة ويخاصموها ولقد تدفعهم كذلك إلى اتخاذ وسائل وأساليب لا تستقيم مع موازين الدعوة الدقيقة ولا مع منهج الدعوة المستقيم وذلك حرصاً على سرعة انتصار الدعوة وانتشارها واجتهاداً في تحقيق « مصلحة الدعوة » [2] .

---

(١) النازعات ٢٤ .

(٢) طريق الدعوة في ظلال القرآن ص ١٨٠ .

تزيين الشيطان الأكبر :

وهو ما يتم لأمة كاملة .

ومن سنّة الله في خلقه أن يفتنهم بالخوف والبلايا والشدائد والأمراض والأوجاع والجوع لكي يرجعوا إليه عند رؤيتهم ذلك ويستغفروه على ما كانوا يفعلون ولكن نادراً ما يتعظ الخلق بذلك والسبب قوة القلب « فهي كالحجارة أو أشد قسوة »[1] .

ويزين الشيطان أعمالهم فيروها حسنة « ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون »[2] ، « تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلكم وزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم »[3] . . . أمم كاملة تصد عن الحق وتجري لقطف تلك الزهور الجميلة المتفتحة العطرة ولا تدري بأن تحت الزهور أشواكاً ، أمم كاملة لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر ـ أمم كاملة زين لهم الشيطان حب أنفسهم والاعتزاز بجنسهم واحتقار الأجناس الأخرى . وما النتيجة من هذا التزيين وغيره ؟ أمراض نفسية معقدة لم يرَ الإنسان مثلها من قبل : ضياع كامل وقلق وحيرة ، والهرج الذي حدث عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد يوماً بعد يوم : حروب متواصلة بين أمم تجمعهم شريعة الله ولغة القرآن والعادات والتاريخ ، وفقر ملصق بالتراب وغيرها كثير مما لا يحصى عدده .

وعدو الله يدفعهم دائماً لتبرير ما يحدث وتعليل هذه المسائل لأسباب سياسية أو اقتصادية أو علمية أو غيرها .

---

(١) البقرة ٧٤ .

(٢) الأنعام ٤٢ - ٤٣ .

(٣) النحل ٦٣.

إنه دائماً يلبس قلوبهم أقنعة سوداء لتحجبها عن الرؤية، فتحليلاتهم دائماً تكون نتيجة رؤية أعينهم وليست رؤية قلوبهم لأنها ما زالت مقنّعة . . .

هذه الأمم التي زين لها الشيطان ، لا تحب أن يماط اللثام عن وجه الحقيقة والواقع الذي هم فيه ، فهي تعتقد أن هذا هو الصواب وغيره باطل فلا تريد أحداً أن يكشف خطأ ذلك الاعتقاد .

وأحد الدلائل على ذلك عندما سافر سيد قطب إلى أمريكا ورأى الضياع والحيرة والقلق المنتشر بين الشعب الأمريكي كتب كتاباً كشف فيه عن الواقع الذي يعيشه الشعب الأمريكي سماه «أمريكا التي رأيت» وكان قد اختفى ذلك الكتاب ولم يطبع بعد ذلك وما زالت الإشارات الحمراء تضيء للبشرية محذرة مما هم مقدمون عليه «لعلهم يتضرعون» ولكم أبوا إلاّ قسوة القلوب واتباع ذلك التزيين. . .

الوسوسة

(وسوس) في اللغة تعطي معنى التكرار كما هو الحال في (كبكب) أي الاستمرار بالكب وهكذا . . .

وعدو الله منذ أن أعلن إعلانه الأول أمام الله باعتزامه إضلال هذه البشرية لم يلق سلاحه ولم يملّ طول الحرب مما يدل على أن الباطل لم يقف أبداً وهو سريع كسرعة النار إذا أضرمت بالهشيم . أما إذا صمت أصحاب الحق واستكانوا كانت سرعة الباطل أكثر وإذا ذكروا الله وأعدوا العدة لمواجهة عدوهم فإن الحق ينهمر كالشلال من قمم الجبال على نار الباطل فيطفئها بإذن الله ، ولا يتم ذلك إلاّ بذكر الله في كل وقت وعلى كل حال كما يقول

رسول الله صلى الله عليه وسلم « الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله تعالى خنس وإذا غفل وسوس »[1] وبما أن إبليس مستمر بالوسوسة ونشر الضلال بين بني آدم فعلى أصحاب الحق أن يستمروا بنشر الحق ولا يستكينوا ولا يفتروا « وفي أثر عن بعض السلف أن المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي الرجل بعيره بالسفر لأنه كلما اعترضه صب عليه سياط الذكر والتوجه بالاستغفار والطاعة فشيطانه معه في عذاب شديد ليس بمنزلة شيطان الفاجر الذي هو معه في راحة ودعة ولهذا يكون قوياً عاتياً شديداً »[2] .

وهذا الذل الذي تعيشه الدول الإسلامية وخاصة العربية منها وهذه الأراضي المغتصبة في كل مكان كله بسبب نسيان ذكر الله واستعانتهم بتشريعات العبيد الوضعية فلم يزدادوا إلاّ ذلاً فوق ذل وهواناً فوق هوان ولقد ازدادوا عدداً ولكنهم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « غثاء كغثاء السيل » ولن يغير الله ما هم عليه من الذل والهوان في أعين الناس حتى يذكروا الله فيغيروا أنفسهم ذلك لأن « الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »[3] . والذكر لا يتم باللسان فقط إنما يتممه الذكر بالقلب فهاتان الصورتان من الذكر هما المحرك الذي يدفع أصحاب الحق للعمل في سبيل الله والحركة في سبيله ونسيانهم لها تدفعهم إلى السكون ، فمسيرة الباطل لا توقفها أدعية المصلين ودموعهم ولا صيام النوافل ولا يحبط عزائمهم قراءة المجلدات ومناظرة الفقهاء فحسب .

ولكن الذي يزلزلهم ويرعبهم ويحبط عزائمهم هو العمل الدائم المستمر في سبيل الله أو قل الجهاد لتغيير هذا الواقع الجاهلي إلى الواقع الذي أمر الله به أن يكون ، وذلك مصداقاً لقول الله تعالى للمؤمنين بإرشادهم على التجارة

---

(١) البخاري .
(٢) بدائع الفوائد ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ .
(٣) الرعد ١١ .

التي تنجيهم من عذاب أليم « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون »[1] . فهي المعارك المستمرة لمقاتلة الشيطان وحزبه – هذا ما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم للرعيل الأول ولقد أطلق براقه الأول مصعب بن عمير ليتحرك أمام تحرك الباطل فيحصد ما زرعه الباطل ليغرس مكانه بذور الحق وجـاء من بعده الصحابة رضوان الله عليهم يطبقون ما علمهم الرسول صلى الله عليه وسلم « ومما يروى لنا التابعي الكوفي الفقيه النبيل عامر الشعبي ان رجالاً خرجوا من الكوفة ونزلوا قريباً يتعبدون فبلغ ذلك عبد الله بن مسعود (ر) فأتاهم ، ففرحوا بمجيئه إليهم ، فقال لهم : ما حملكم على ما صنعتم ؟ قالوا : أحببنا أن نخرج من غمار الناس نتعبد فقال عبد الله : لو أن الناس فعلوا مثل ما فعلتم فمن كان يقاتل العدو ؟ وما أنا ببارح حتى ترجعوا »[2] .

وجاء من بعده أمير الحديث عبد الله بن المبارك ليرسل إلى أشهر العباد والزهاد في تاريخ الإسلام الفضيل أبياتاً يصفه فيها « بأنه عابد لاعب بعبادته » ويبعث له من طرطوس بعـد معركة من معاركه قبل أن ينفض غبار المعركة عنه قائلاً له فيها :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت أنك بالعبادة تلعب
من كان يخضب جيده بدموعه	فنحورنا بـدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل	فخيولنا يوم الكريهة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا	رهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتـانا عن مقال نبينا	قول صحيح صادق لا يكذب

---

(١) الصف ١٠ ، ١١ .
(٢) المنطلق ، ص ١٠٩ ، ١١١ .

لا يستوي غبار خيل الله في أنف امرىء ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميت لا يكذب

وهل لنا أن نقول لمتزهد اليوم إلا كما قال ابن المبارك : «يا عابد لو أبصرت دعاة الإسلام يصاولون دعاة الكفر والضلال الحزبي لعلمت أنك بالعبادة تلعب »(1) .

فبالمجاهدة والحركة تعلو الأقدار. ولقد أجاد الإمام ابن الجوزي عندما بين ذلك بمحاورة بين الزيت والماء حين قال :

« إذا صب في القنديل ماء . ثم صب عليه زيت . صعد الزيت فوق الماء فيقول الماء : أنا ربيت شجرتك ، فأين الأدب ؟ لم ترتفع علي ؟ فيقول الزيت : أنت في رضراض الأنهار ، تجري على طريق السلامة ، وأنا صبرت على العصر ، وطحن الرحا ، وبالصبر يرتفع القدر ، فيقول الماء : ألا أني أنا الأصل .

فيقول الزيت : استر عيبك ، فإنك لو قارنت المصباح ، انطفأ »(2) .

فبالمجاهدة وحدها ترتفع الأقدار ، وعندما تحدث هذه الحركة الإيمانية بالاتجاه المعاكس لحركة الباطل تحدث النتيجة الطبيعية وهي الخنوس أي الاحتجاب أو الرجوع إلى للوراء أو الاختفاء أمام مد الحق الجارف « من شر الوسواس الخناس » .

ويتدرج إبليس في وساوسه مع ابن آدم في ست مراتب ذكرها الإمام ابن القيم وهي :

---

(1) المنطلق ، ص ١٠٩ ، ١١١ .
(2) المدهش ، ص ١٧٥ .

المرتبة الأولى : شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله :

فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تعبه معه وهو أول ما يريد من العبد ، فلا يزال به حتى يناله منه فإذا نال ذلك صيَّره من جنده وعسكره واستنابه على أمثاله وأشكاله فصار من دعاة إبليس ونوابه ، فإن يأس منه من ذلك ، وكان ممن سبق له الإسلام وهو في بطن أمه [1] نقله إلى المرتبة الثانية من الشر .

المرتبة الثانية : شر البدعة :

وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي لأن ضررها في نفس الدين وهو ضرر متعد وهي ذنب لا يتاب منه ، وهي مخالفة لدعوة الرسل ودعاء إلى الخلاف ما جاءوا به ، وهي باب الكفر والشرك فإذا نال منه البدعة ، وجعله من أهلها صار أيضاً نائبه وداعية من دعاته . فإن أعجزه من هذه المرتبة وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السند ومعاداة أهل البدع والضلال نقله إلى المرتبة الثالثة من الشر .

المرتبة الثالثة : شر الكبائر على اختلاف أنواعها :

فهو أشد حرصاً على أن يوقعه فيها ، ولا سيما إن كان عالماً متبوعاً فهو حريص على ذلك ، لينفر الناس منه ثم يشيع ذنوبه ومعاصيه للناس ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها تديناً وتقرباً بزعمه الى الله تعالى وهو نائب ابليس ولا يشعر بأن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة . هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها لا نصيحة منهم ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع منه.وذنوب هذا ولو بلغت عنان السماء هي أهون عند الله

---

(١) وهي احد الاشياء التي يأمر الله بها الملك الذي ينفخ فيه الروح .

من ذنوب هؤلاء فإنها ظلم منه لنفسه إذا استغفر الله وتاب إليه قبل الله توبته وبدل سيئاته حسنات ، وأما ذنوب أولئك فظلم للمؤمنين وتتبع لعوراتهم وقصد لفضيحتهم والله سبحانه بالمرصاد لا تخفى عليه كمائن الصدور ودسائس النفوس . فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى المرتبة الرابعة .

المرتبة الرابعة : شر الصغائر :

وهي الصغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إياكم ومحقرات الذنوب فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد ، فجاء بعود ، وجاء ذا بعود حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم ، وان محقرات الذنوب متى يأخذ بها صاحبها تهلكه »[1] . وذلك حديثاً معناه : إن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتى أوقدوا ناراً عظيمة فطبخوا واشتووا . ولا زال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالاً منه فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى المرتبة الخامسة .

المرتبة الخامسة : شر الاشتغال بالمباحات :

وهي اشتغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها ، فإن أعجزه العبد في هذه المرتبة وكان حافظاً لوقته شحيحاً به يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها بالنعيم والعذاب نقله إلى :

المرتبة السادسة : شر الاشتغال بالعمل المفضول عما هو أفضل منه :

وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليزيح عنه الفضيلة

---

(١) صحيح الجامع الصغير ، ج ٢ ص ٣٨٦ .

ويفوته ثواب العمل الفاضل فيأمره بفعل الخير المفضول ويحضه عليه ويحسنه له إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه، وقل من ينتبه لهذا من الناس. فإنه إذا رأى فيه داعياً قوياً ومحركاً إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعه وقربه فانه لا يكاد يقول: ان هذا الداعي من الشيطان فإن الشيطان لا يأمر بخير ويرى أن هذا خير ، فيقول هذا الداعي من الله وهو معذور ولم يصل علمه أن الشيطان يأمر بسبعين باب من أبواب الخير إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر وإما يفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين باباً وأجل وأفضل وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلاّ بنور من الله يقذفه في قلب العبد ، يكون سببه تجريدُ متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها إليه ، وأرضاها له ، وأنفعها للعبد وأعمها نصيحة له ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين، خاصتهم وعامتهم. ولا يعرف هذا إلاّ من كان من ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ونوابه في الأمة وخلفائه في الأرض وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك ، فلا يخطر ذلك بقلوبهم بالله يمن بفضله على من يشاء من عباده .

فإذا أعجزه العبد في هذه المراتب الست وأعيي عليه : سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه ، وقصد إلى إخماله وإطغائه ليزشوش عليه قلبه ويشغله بمحاربة فكره ، وليمنع الناس من الانتفاع به فيبقى سعيداً من تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه لا يفتر ولا ينثني فحينئذ يلبس المؤمن لأمة الحرب ولا يضعها عنه إلى الموت ، ومتى وضعها أسر أو أصيب فلا يزال في جهاد حتّى يلقى الله [١] .

وهناك مدخل غريب قل من يفطن إليه من الدعاة، وهو أن يأتي لأحدهم بالبراهين التي يبدو ظاهرها صحيحاً ويريد بها باطلاً ليبعدهم عن الطريق الذي التزموه أو يجعلهم ضعافاً عالة على الحركة الإسلامية ، ويظل يحقنهم

---

(١) بدائع الفوائد ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ .

بهذه الحقن المخدرة حتى يجعلهم أسماء فقط في الجماعة المسلمة ــ ومن أخطر هذه المداخل حثهم على السكوت عن المنكر.

وذلك أضعف الايمان

وهذه لا يقولها لهم صريحة « اسكتوا عن المنكر » إنما يأتي لهم حسب خطة رسمها في أول لقاء له مع آدم ــ خطة التدلية أو التدرج بالإغواء .

فعندما يرى الداعية منكراً ما يتذكر الحديث :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »[١] وربما استطاع أن يغير ذلك المنكر بيده فيعرض له إبليس قائلاً له : « غيره بلسانك فإنه يأتي بنتائج أفضل » وإذا كان ممن لا يستطيع تغيير ذلك المنكر بيده ويستطيع بلسانه يعرض له ويقول : « لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها »[٢] فلماذا تورط نفسك وربما يحدث لك ما تكره من وراء ذلك ، ويظل يرهبه من الإنكار والتورط باليد ويرغبه بالإنكار بالقلب حتى يقتنع بذلك ويفعله أو أن يقول له ، إذا كان المنكر من أخ له بالدعوة « إذا أنكرت عليه ذلك ستفقد صحبته أو ربما يتأثر من ذلك » ، ويستسلم هذا الداعية لهذه الوساوس وغيرها ويكتفي بالإنكار بالقلب ، وتتوالى عليه رؤية المنكر بأشكاله المتعددة وفي كل مرة يغريه إبليس بالإنكار بالقلب حتى يألف المنكر ولا ينكره حتى في قلبه ــ ويجلس مع أصحاب الغفلة يضحك مع ضحكاتهم ويغفل كما يغفلون ــ فإن لم ترفعه توبة خالصة لله من ذلك الانخفاض فإن الإيمان ينسحب من قلبه رويداً رويداً

---

(١) صحيح مسلم .
(٢) البقرة ، ٢٨٦ .

حتى ما يبقى في قلبه من الإيمان حبة خردل ، كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلاّ كان له في أمته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »[1] .

وحتى لا يساء الفهم فإني لست بصدد أولئك الدعاة الذين لا يستطيعون فعلاً أن يغيروا بعض المنكرات بأيديهم وألسنتهم فيلجئون إلى إنكاره بقلوبهم ولا يفعلون ذلك في كل منكر يروه — إنما نتكلم عن ذلك الصنف من الدعاة الذين يتخذون إنكار القلب هو الحل الوحيد لإنكار كل منكر.والخطورة في البقاء الدائم على هذا النوع من الإنكار يعرض صاحبه لضعف الإيمان الذي حدَّث عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن صاحبه ليس بمأمن من أن يصيبه ما ذكرنا إن لم يرجع إلى الله بتوبة نصوح .

---

(١) صحيح مسلم .

الفصل السّادس

نتيجة أتباع الشّيطان

١ – الخسران .

٢ – وقيضنا لهم .

٣ – تؤزّهم أزًّا .

٤ – حقت عليهم الضلالة .

٥ – الهداية إلى السعير .

٦ – الحشر .

٧ – الآن تندم .

٨ – الوعد الباطل .

٩ – الاعتراف الأخير .

الخسران

من الناس من يصل إلى درجة في طاعة الشيطان بحيث لا يعطي لعقله فرصة التفكير، فأي وسواس من الشيطان وأي أمر يأمره به ينساق إليه حالاً ودون تردد ويترك أوامر الله وراء ظهره، فما أن تدعوه شهوته إلى ما حرم الله إلا انساق إليها وإذا سمع كلام الله شعر بالضيق لأنه والى الشيطان من دون الله وآثر أوامر الشيطان على أوامر الله سبحانه فكانت أول نتيجة لذلك الاتباع هي الخسارة « ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً »[1] وعندما يختار الإنسان الباطل بإرادته ويترك الحق بإرادته يرسل الله إليه شيطاناً ليصده عن طريق الحق ويبعده عنه حتى لا يراه أبداً ومن ثم يتيه في صحراء الباطل .

وقيضنا لهم

« وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين »[2] .

كنت أتساءل عند قراءتي هذه الآية من هؤلاء الذين يرسل الله لهم قرناء

(١) النساء ١٢٠ .
(٢) فصلت ٢٥ .

يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ويغمسونهم بأوحال الضلال غمساً حتى يستحيلوا قطعة من الضلال كريهة الرائحة قبيحة المنظر غير منتظمة الشكل حتى يحق عليهم القول بالخسارة ؟ حتى هداني الله إلى آية أخرى تفسرها تفسيراً مفصلاً . . .

إنهم الصادّون عن ذكر الله ، اللاوون رؤوسهم عن الحق بقاع الضلال لا يريدون مفارقته ، الناسون الله العابدون لأهوائهم وشهواتهم ، والمعانقون للدنيا لا يريدون مشاركة أحد بهذا العناق وتاركين وراءهم يوماً ثقيلاً — هم الذين قال الله تعالى فيهم «ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وأنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون »[1] هذه هي سنّة الله في خلقه العدل المطلق « وما ربك بظلام للعبيد »[2] .

فالحق واضح وضوح الشمس والعقل قادر على التمييز بين الطريقين ويجزيه الله بما اختار بمحض إرادته فإن اختار الحق زاده هدى إلى هداه « والذين اهتدوا زادهم هدى وأتاهم تقواهم »[3] ولئن اختار الباطل أضله الله بأن يقيض عليه ذلك الشيطان « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم »[4] .

هذا القرين يقوم بصد ذلك الإنسان وإبعاده عن طريق الحق حتى يوهمه بأنه مهتدي وأنه على حق كما أوهم فرعون من قبل وأبو جهل وكما يوهمون فراعنة هذا العصر بأنهم مهتدون وأن أصحاب الحق هم الذين يعرقلون مسيرة التقدم الحضاري .

---

(١) الزخرف ٣٦ — ٣٩ .
(٢) فصلت ٤٦ .
(٣) محمد ١٧ .
(٤) الصف ٥ .

وما بين آونة وأخرى يقومون بتغيير قوانينهم الوضعية ظانين أنهم يهتدون إلى طريق أقوم وأصلح ، وما يدرون هؤلاء المساكين أن قرناءهم هم الذين يوهمونهم بأنهم مهتدون ، وما يدرون أنهم يثبون بخطا واسعة إلى جهنم « وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس انهم كانوا خاسرين »[1].

وتظل سيطرة هؤلاء القرناء على هذه الفئة من الناس ويستمرون في إضلالهم وإغوائهم وإبعادهم عن طريق الحق إلى أن يأنسوا إلى هذا الضلال ويألفوا هذه الروائح النتنة من الذل تحت سيطرة الشياطين. وصدق الإمام ابن القيم إذ يقول : « ما ظنك بملك استولى عليه عدوه فأنزله عن سرير ملكه وأسره وحبسه وحال بينه وبين خزائنه وذخائره وخدمه وصيرها له ومع هذا فلا يتحرك الملك لطلب ثأره ولا يستغيث بمن يغيثه ولا يستنجد بمن ينجده وفوق هذا الملك ملك قاهر لا يُقهر وغالب لا يغلب وعزيز لا يذل فأرسل إليه « ان استنصرتني نصرتك وإن استغثت بي أغثتك وإن التجأت إليّ أخذت بثأرك وإن هربت إلي وآويت إليّ سلَّطتك على عدوك وجعلته تحت أمرك » فإن قال هذا الملك المأسور « قد شد عدوي وثاقي وأحكم رباطي واستوثق مني القيود ومنعني من النهوض إليك والفرار إليك والمسير إلى بابك فإن أرسلت جنداً من عندك يحلوا وثاقي ويفكوا قيودي ويخرجوني من حبسه أمكنني أن أوافي بابك وإلاّ لا يمكنني مفارقة محبسيّ ولا كسر قيودي » فإن قال ذلك احتجاجاً على ذلك السلطان ودفاعاً لرسالته ورضي بما هو فيه عند عدوه خلاه السلطان الأعظم وحاله وولاه ما تولى[1] .

وهذا ما فعله الذين اختاروا الضلال – لقد رضوا باستشار الشيطان لهم وأحبوا القيود التي قيدوا بها حتى يتخيل إليهم أنها أساور وليست قيود –

---

(١) فصلت ٢٥ .

(٢) الفوائد ، ابن القيم ، ص ٦٠ .

وتستمر الشياطين في الإضلال حتى نرى بعض الناس كأنهم شياطين بصور بشر ذلك لأن الشياطين يهيجونهم على المعاصي تهييجاً ليزدادوا عذاباً في الآخرة .

تؤزهم أزا

وكما أنه لا بد للحجارة الساقطة من أعالي الجبال أن تنزل إلى الأرض ، كذلك الإنسان عندما يختار الباطل فإنه يسقط كما تسقط الحجارة من أعالي الجبال إلى الأرض إلى الحضيض إلى الوحل إلى فم الشيطان الفاتح فاه مستقبلاً هذا الإنسان .

ولم يسقط هذا الإنسان إلى هذا الحضيض إلا عندما اختار هو نفسه الهبوط من العلو ، وكما أن قانون الجاذبية يحتم على الأجسام الساقطة أن تنزل إلى الأرض كان طبيعياً أن يهبط ويتدحرج هذا الإنسان من العلو إلى أسفل السافلين بعد أن ترك هذا الحق وأعرض عنه — وكانت النتيجة طبيعية غير معقدة ولا تحتاج إلى تفكير كما كانت قصة الحجارة الساقطة — كان طبيعياً أن تبتلعه الشياطين التي كانت فاتحة فيها لاستقبال هذا الصيد المدحرج وأن تتسلط هذه الشياطين وتغريهم وتهيجهم على المعاصي تهييجاً شديداً بأنواع التسويلات والوساوس ، « ألم ترَ أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزاً »[1] . وهم السبب في ذلك الأزّ وفي هذا التسلط .

كما قال ابن القيم « إن الله لم يجعل له عليهم سلطاناً ابتداء البتة ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته ودخولهم في جملة جنده وحزبه فلم يتسلطن

---

(١) مريم ٨٣ .

عليهم بقوته فإن كيده ضعيف وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم . والمقصود أن من قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونصائحه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلى عدوه كان من عقوبته أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه »[1] والذي لم يسلك الطريق الصواب بل سلك الطريق الخطأ لا بد أن يتبعه وتكتب عليه الضلالة ، فكذلك أصحاب الباطل كتبت عليهم الضلالة .

حقت عليهم الضلالة

« كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريق حق عليهم الضلالة »[2] يقول ابن عباس إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً كما قال : « هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » ثم يعيدكم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً . يقول ابن كثير « قلت ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري « فوالذي لا إله غيره أن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وأن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها »[3] .

فسيعود فريقان لا غير : فريق الحق وفريق الباطل، أما الفريق الأول فقد استخدموا ما آتاهم الله من السمع والبصر والفؤاد فأنار الله أفئدتهم بنور الحق فأبوا إلا اتباعه وعلموا أنه لا ملجأ من الله إلا إليه واستهانوا بالموت في سبيله لأنهم أيقنوا إنما هذه الأجساد التي يعيشون بها هي فقط لقضاء هذه المدة القصيرة

---

(١) عدة الصابرين ، ابن القيم ، ص ١٧ .
(٢) الاعراف ٣٠ .
(٣) تفسير ابن كثير ، ج ٢ ص ٢٠٩ .

على هذه الأرض . ونرى هذه الحقيقة في قصة موسى عليه السلام مع السحرة عندما تمكن الإيمان في قلوبهم فأعلنوا إسلامهم بعد أن رأوا الحق مع موسى وأن ما كان لديهم باطل هزيل فهددهم فرعون بالموت ولكنهم ردوا عليه رد المؤمن بأن فرعون إنما يقتل أجساداً ولا يستطيع قتل الإيمان « فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا » [1] .

وان هذه الحقيقة تتجسد على مدار الاجيال كلما ظهرت فئة تؤمن بالله وتتخذه ولياً ومشرعاً لها في أمور دنياها وآخرتها .

أما فريق الباطل برئاسة إبليس فقد ظنوا أنهم هم المتقدمون الحضاريون وأنهم هم الشعوب الراقية وأن أولياء الله هم المتخلفون فاتخذوا الشيطان قائداً وموجهاً لهم ، فماذا كانت النتيجة ؟ « حق عليهم الضلالة » غلف الله قلوبهم بسواد « بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » [2] حتى لا يعوا الحق ، ووضع في آذانهم حواجز حتى لا يسمعوا الحق وعصب أعينهم حتى لا يروا الحق «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » [3] حتى يتعمقوا في ظلامهم الدامس ليسهم قيادتهم إلى السعير .

الهداية الى السعير

هذا الغرور والكبر الذي يدفع فئة من الناس أن تجادل في الله بوحدانيته ووجوده وقدرته وصفاته وتتبع في جدلها إبليس وجنوده ، يتساءلون . . . أيوجد الله حقاً ؟ أين هو ؟

« ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد » [4]

---

(١) طه ٧٢ .
(٢) المطففين ١٤ .
(٣) البقرة ٧ .
(٤) الحج ٣ .

يتلفظون بهذه الألفاظ بلا خوف وبكل جرأة حتى يدفعهم بأن ينكروا أن الله هو الذي ينظم الأكوان وأن الله فكرة خرافية اختلقها الإنسان ليبرر عجزه . يا للعجب . . أيوجد عقل بهذا العصر يؤمن بهذه الافتراءات ؟

ألا ترى هذه الجموع الجاحدة ؟ هذه الجموع المجادلة في الله بغير علم ، ألا ترى إبليس بين حروف الآيات ماسكاً بأيدي أتباعه ليدليهم الطريق « كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه »(1) .

رباه . . . إلى أين يهديه ؟ وكيف يهديه ؟ ؟

« ويهديه إلى عذاب السعير »(2) .

إنه يسوق هذه الجموع التي احتشدت من أطراف الأرض . . .

يسوقها ويدعها دعاً للمصير المظلم ـ يتخبطون في ظلامهم تائهين ذليلين أسرى وراءه ، وراء ذلك الظلام الذي يحسبونه نوراً ، ولا يدرون أنها شهوات أحيطت بتلك النار حتى لتبدو في أعينهم وكأنها نور .

وكأن هناك لوائح على جوانب الطريق كتب عليها « إلى عذاب السعير » .

ويظلون يتبعون ذلك النور المزيف إلى أن يقعوا في مصيرهم المؤلم « عذاب السعير » . « إن هذا المغرور لما أذل سلطان الله الذي أعزه به وشرفه ورفع به قدره وسلمه بيد أبغض أعدائه إليه ، وجعله أسيراً له تحت قهره وتصرفه وسلطانه سلط الله عليه من كان حقه هو أن يتسلط عليه فجعله تحت قهره وتصرفه وسلطانه يسخره حيث شاء ويسخر منه ويسخر منه جنده وحزبه فكما أذل سلطان الله وسلمه إلى عدوه أذله الله وسلط عليه عدوه الذي أمره أن

---

(1) و (2) الحج ٣ .

يتسلط هو عليه فيذله ويقهره فصار بمنزلة من سلم نفسه إلى أعدى عدو له يسومه سوء العذاب »[1] .

وقبل ذلك السعير يلاقون أهوال الحشر من زحف على الأوجه وغرق في العرق من شدة حرارة الشمس التي تنزل على بعد ميل من الرؤوس وإهانة من الملائكة .

الحشر

دعهم ينعقون بباطلهم ، ويحاربون الله ورسوله ، يسرقون أموال الشعوب يكبتوا الحريات ، ينشروا الفساد . . .

دعهم يخططون لضرب الحق مرة ومرات .

دعهم يلههم الأمل أنهم خالدون .

دعهم يعملوا ما يشاؤون فإنهم محشورون حول جهنم هم وشياطينهم. ياهول ذلك المنظر، جموع كبيرة من البشر والجن، مختلفة ألوانهم وأشكالهم، عمالقة وأقزام ، ملايين الملايين الأولين والآخرين يجرون عراة الأجسام شاحبي الوجوه ، صماً وبكماً وعمياً — رباه كيف سيجري هذا الأبكم وهذا الأعمى وهذا الأصم وسط هذه الجموع ؟

وفئة أخرى يزحفون على وجوههم . . . كلهم يجرون وأبصارهم خاشعة — يلعن بعضهم بعضاً — يجرون كالبهائم — وبعد ذلك يحضرهم الله في آخر هذا الطريق، نهاية الطريق الذي لم يتهيئوا لتهيئته امثرلة. . . نهاية طريق الباطل . . .

---

(١) عدة الصابرين ، ص ١٧ .

ها هم يحضرون تدعهم الملائكة دعاً، يحضرون منكسي الرؤوس، يحضرون مع شياطينهم من الإنس والجن ، جاثين على ركبهم حول جهنم لتقررهم الملائكة بذنوبهم وجرائمهم مع أنفسهم ومع الناس « ألم يأتكم نذير »[1] ؟

ها هم يسحبون من نواصيهم وأقدامهم ويرمون من مكان ضيق مقرنين بالسلاسل هذه نهاية الطريق وهذا هو الجزاء الحق .

« فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً »[2] .

وحينئذ «يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول يا ليتني قدمت لحياتي »[3] .

ويتندم ندماً شديداً على مرافقة ذلك القرين ويتمنى أن لو كان بينه وبين قرينه بعد المشرقين ولكن :

الآن تندم

« حتى إذا جاءنا قال : يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين » وهكذا ننتقل في ومضة من هذه الدنيا إلى الآخرة ويطوي شريط الحياة السادرة ويصل العمى « الذين يعشون عن ذكر الرحمن » إلى نهاية المطاف فجأة على غير انتظار هنا يفيقون كما يفيق المخمور ويفتحون أعينهم بعد العشي والكلال[4] وينظر الواحد منهم إلى قرين السوء الذي زين له الضلال وأوهمه أنه الهدى ، وقاده إلى طريق الهلاك وهو يلوح له بالسلامة ، ينظر إليه في حنق يقول : « يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين » يا ليته لم يكن بيننا لقاء على هذا البعد السحيق ، ويعقب القرآن على حكاية قول القرين الهالك للقرين بقوله :

---

(١) الملك ٨ .
(٢) مريم ٦٨ .
(٣) الفجر ٢٣ ، ٢٤ .
(٤) العشي وهي كلالة البصر عن الرؤية وغالبا ما يكون عند مواجهة الضوء الساطع الذي لا تملك العين ان تحدق فيه .

« فبئس القرين » ونسمع كلمة التيئيس الساحقة لهذا وذاك عند إسدال الستار على الجميع « ولن ينفعكم اليوم إذا ظلمتم انكم في العذاب مشتركون ، فالعذاب كامل لا تخففه الشركة ولا يتقاسمه الشركاء »[1] .

ويندم عاضاً على يديه لا يدري ماذا يفعل أينظر إلى الحقائق التي تتحرك أمام عينيه أم يبكي ليهون عن نفسه – وهل يجدي البكاء شيئاً وهل يجدي الندم ؟ . . . الآن تندم .

« ويوم يعضّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ، يا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً »[2] .

الآن انكشفت له الحقيقة أن الشيطان خذله ولم ينصره فقام يهذي ويتمنى ويقول : « يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً »[3] .

« يا ليتني قدمت لحياتي »[4] ، « يا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً »[5] .

« يا ليتني لم أوتَ كتابيه »[6] ، « يا ليتني كنت تراباً »[7] ، « يا ليتها كانت القاضية[8] .

وما فائدة «يا ليت» عذاب خالد ينتظر وألسنة من النار متشوقة لالتهام هذه الأجساد التي أطاعت الشيطان وعقت ربها.

---

(١) الظلال ، ج ٥ ، ص ٣١٨٩ .
(٢) الفرقان ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .
(٣) الفرقان ٢٧ .
(٤) الفجر ٢٤ .
(٥) الفرقان ٢٧ .
(٦) الحاقة ٢٥ .
(٧) النبأ ٤٠ .

وبعد أن قضي الأمر جاءهم الشيطان ليقول لهم الحقيقة التي أخفاها عنهم ويتبرأ منهم ويتخلى عنهم ويوضح لهم أن وعده كان باطلاً .

الوعد بالباطل

لقد انتهت الخطة وحملت الأسلحة من أرض المعركة وها هم القتلى والجرحى على أرض المعركة تسيل دماؤهم من أجسادهم ، فمنهم من جرح جرحاً هيناً ومنهم من جرح جرحاً عميقاً ومنهم من تساقط لحمه وبدا هيكله عارياً من اللحم ومنهم من تخلل حتى هيكله .

ها هم قد وصلوا بدمائهم وجراحاتهم إلى نهاية الطريق بعد أن ساروا طيلة هذه الدنيا على هذا الكوكب الصغير ، أين الغاية ؟ أين المتعة ؟ أين أنا ؟ ؟

ها هي الغاية المضحكة والمبكية في آن واحد وها هي المتعة التي كنتم تنتظرون . . آفة كبيرة فاتحة فاها متشوّقة لتقبيلكم ومعانقتكم بعد فراق . . . ها هي تخرج الزفير والشهيق شوقاً للقائكم ، ها هي رافعة يديها تناديكم . . هلموا هلموا . ها هي النهاية . ها هو معسكركم الذي كنتم تستظلون به يحترق وها هو قائدكم العام ورؤساؤكم الذين طالما صفقتم لهم ونصرتموهم وانتحتم من أجلهم . . . جميعهم وصلوا إلى ما يريدون « هذه النار التي كنتم بها تكذبون أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون »[1] وقالوا مستغربين : « ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار »[2] ألا تعلمون أين أولئك القوم الذين ضحكتم عليهم وكنتم تستعبدونهم وهم أحرار ، والذين تشققت أجسادهم تحت سياطكم الذين كانوا يطفؤون نار الظلم وأنتم توقدون . . .

---

(١) الطور ١٤ ، ١٥ .
(٢) ص ٦٢ .

أما ترونهم « يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم »[1] أما تسمعون الملائكة تقول لهم « بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها »[2] . الآن تنادونهم « انظرونا نقتبس من نوركم »[3] ؟

الآن أحببتم النور وقمتم تستجدونه من أصحاب الحق بعد أن تحولت أجسادكم إلى كتلة من ظلام . . .

ولكن هيهات هيهات لن تحصلوا على هذا النور .

«فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب »[4].

وحتى هذا السور لم يوقفهم من استجداء النور من أهل النور فقاموا ينادونهم من وراء السور « ألم نكن معكم ؟ »[5] وجاء الرد الفاصل من أصحاب الحق « بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير »[6] .

نعم لقد انتهت الخطة التي وضعها القائد العام للقوات الضالة . لقد انتهت الخطة التي وضعها للانتقام من هذا المخلوق — وما أطوله من انتقام.وبقيت آخر فقرة من الخطة وهي التخلي عن أوليائه والتبرؤ منهم ، فعندما قضي الأمر وأدخل أصحاب الحق إلى الجنة زمراً وأصحاب الباطل إلى جهنم زمراً ، قام إبليس في أصحاب الباطل « خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم وغبناً إلى غبنهم وحسرة إلى حسرتهم فقال : « إن الله وعدكم وعد الحق » على ألسنة

---

(١) و (٢) و (٣) و (٤) الحديد ١٢ .
(٥) و (٦) الحديد ١٥ .

رسله ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة وكان وعداً حقاً وخبراً صادقاً وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم ثم قال: « وما كان لي عليكم من سلطان » وما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه دليل ولا حجة فيما وعدتكم به « إلاّ أن دعوتكم فاستجبتم لي » بمجرد ذلك.هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به فخالفتوهم فصرتم إلى ما أنتم فيه « فلا تلوموني ولوموا أنفسكم » [1] ان الندم ولوم النفس أحد صفات المؤمنين وكذلك هي أحد شروط التوبة وقبولها ، فماذا سيكون إحساس ذلك الإنسان عندما تتضح أمامه الحقيقة ويكتشف خيانة قائده وتخليه عنه وتركه لنفسه تلومه ويلومها ولكن لا فائدة من ذلك اللوم فلا توبة ولا فرصة للرجوع للأرض ليعمل صالحاً . . .

ولئن كان البكاء دواء أحياناً لإخراج ما بالنفس من كبت وحزن فيا ترى ماذا سيكون شعور ذلك الإنسان حينما يدرك بأنه لا فائدة حتى من البكاء ولا راحة ترجى من ورائه وحتى الصبر الذي يكون غالباً هو الحل لمعظم مشاكل الدنيا يكون هو أيضاً الآخر باطل المفعول « فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون » [2] وحتى الظل الذي يكون من طبيعته أنه بارد يسحب الله منه هذه الخاصية ليعذب أولياء الشيطان عذاباً أليماً « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم » [3] أين ما يولي يجد أمامه عذاب ، هل يستطيع الإنسان تناسي هذه الهوائل كما كان يتناساها بالأمس ؟ ولئن تناساها فهل سينساه زبانية جهنم الذين وكلوا به وبأمثاله ؟ أين قائده الذي كان يتبعه بالأمس ؟ وأي شيء يملك هذا القائد وهو يتخلى عنه ويتركه للصراع النفسي والجسدي .

---

(١) ابن كثير ، ج ٢ ص ٥٢٩ .
(٢) الطور ١٦ .
(٣) الواقعة ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ .

أين إخوانه وحزبه الذين كانوا يسخرون من المؤمنين ؟ ماذا يملكون وهم يصارعون أنفسهم بلومها ، وها هي الخطبة تشارف على الانتهاء وكانت آخر كلمات القائد « ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ اني كفرت بما أشركتموني من قبل »[1] . . .

وانتهت مع هذه الكلمات كل بارقة آمل للعودة ، وانصهرت كل الخوالج النفسية في باطن الآفة الكبيرة « جهنم » وكانت هذه هي نهايتهم « كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إني بريء منك اني أخاف الله رب العالمين فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين »[2] .

الاعتراف الأخير

وبرزت لهم هذه العملاقة الضخمة بسوادها ودخانها ولهيبها وشررها الذي بحجم القصور وبلون النوق السود وحرارتها التي تعدل سبعين مرة حرارة لهب الدنيا « برِّزت الجحيم للغاوين »[3] .

ترى ما موقف المجرم حينما يقف أمام حبل المشنقة يراه بعينيه مدلى وهو على يقين أنه بعد لحظات قليلة سيكون معلقاً بها ثم يأتي الجلاد ليروي جريمته أمامه وهو مكبل لا يستطيع حراكاً . . .

ترى بأي شعور يقف هذا المجرم هـذا الموقف وبأي نفس سوف يتحمل تلك الصورة.

---

(١) ابراهيم ٢٢ .
(٢) الحشر ١٦ .
(٣) الشعراء ٩٠ ـ ١٠١ .

يقف موكب الطغاة أمام جهنم ثم يقـرون بجريمتهم لتزداد الحالة سوءاً . « أين ما كنتم تعبدون من دون الله »[1] وتكتمل قصة الإيلام والنهاية المؤلمة بألم بعد ألم ويصل العذاب النفسي ذروته عندما تتقاذف عليهم الأسئلة كالسهام « هل ينصرونكم أم ينتصرون »[2] ؟ وحالاً دون انتظار رد من أهل الباطل يرمون في مأواهم وتحضنهم بعد اشتياق طويل طالما انتظرتهم فيه عندما كانوا يسيرون إليها وهم في الدنيا . . . فها هم قد وصلوا فمرحباً بهم . . .

« فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون »[3] .

وعندما تهاووا بالنار وبعد تلك الكبكبة خرجت أصوات منبعثة من الجحيم كأنها الاعتراف والإقرار يقسمون بالله الذي كانوا ينسونه بالدنيا والآن يقسمون به بأنهم كانوا في ضلال مبين ويقولون لآلهتهم التي عبدوها من دون الله « تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين »[4] .

والآن يعترفون الاعتراف الأخير بعد أن رأوا بأعينهم الحقائق ــ الآن وقد انتهى كل شيء ــ وكأنهم يتحسرون ويشعرون بفوات الأوان فيقولون بألم « فما لنا من شافعين ولا صديق حميم »[5] .

وانتهى الباطل واحترق وأخمدت الأصوات وقتلت الخيول وأحرق الرجال الذين كانوا يحاربون الحق وعلى صوت حطب جهنم وهو يحترق معلناً انتصار الحق وخلود أهله في الجنات . . .

---

(١) و (٢) و (٣) و (٤) و (٥) الشعراء ٩٠ ــ ١٠١ .

الفصل السابع

العــــلاج

١ – الاستعاذة .

٢ – المعوذتين .

٣ – آية الكرسي .

٤ – خاتمة سورة البقرة .

٥ – غض البصر .

٦ – إمساك فضول الكلام .

٧ – تنقية الاستماع .

٨ – الصيام .

٩ – الزواج .

١٠ – تقوية الرابطة الأسرية .

١١ – القول الحسن .

١٢ – الابتسامة .

١٣ – الإنفاق .

١٤ ـ الذكر .

١٥ ـ الجهاد .

١٦ ـ الالتزام بالجماعة .

١٧ ـ المحاسبة .

١٨ ـ معرفة حقيقة الدنيا .

١٩ ـ الإخلاص .

٢٠ ـ اتباع السنّة .

الاستعاذة

وهو دواء نافع لكل نزغات الشيطان . . .

« وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول: من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته » (١) كما أنه علاج فعال للغضب الذي يلقيه الشيطان في نفس ابن آدم مما يجعله ينتصر لنفسه ويقع في ما يغضب الله من جدل وسب وحقد وكبر . . .

عن سليمان بن صرر قال : « كنت جالساً مع النبي صلى الله عليه وسلم ورجلان يستبان فأحدهما احمر وجهه وانتفخت أوداجه فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد فقالوا له ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : تعوّذ من الشيطان ، فقال وهل بي جنون » (٢) .

والكريم لا يرد من يلجأ إليه ويستعيذ به . . .

وهي صفة لا يتحلى بها إلاّ المتقون فما أن يصابوا بهذه الوساوس التي تغطي قلوبهم عن الحق فترة من الزمن حتى يذكروا الله ويستعيذوا به من الشيطان الرجيم فيطير ذلك الغطاء الذي كان يغطي قلوبهم ليروا الحق ويبصروا

---

(١) اغاثة اللهفان ، ص ٩١ .
(٢) صحيح مسلم ــ كتاب السلام .

بعد أن عموا « ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون »[1] وهو كذلك يفتح قلب قارىء القرآن ويبعد وسواس الشيطان عنه قال تعالى : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون »[2] .

يقول الإمام ابن القيم :

ومعنى « استعذ بالله » امتنع به واعتصم به والجأ إليه ، ومصدره العوذ ، والعياذ ، والمعاذ وغالب استعماله في المستعاذ به وأصل اللفظة : من اللجأ إلى الشيء والاقتراب منه وفي كلام العرب « أطيب اللحم عوذه » أي الذي قد عاذ بالعظم واتصل به .

أ ـ **الاستعاذة عند قراءة القرآن :** فأمر الله سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن وفي ذلك وجوه :

منها : أن القرآن شفاء لما في الصدور يذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة ، فهو دواء لما أمرّه فيها الشيطان ، فأمر أن يطرد مادة الداء ويخلي منه القلب ليصادف الدواء محلاً خالياً ، فيتمكن منه ويؤثر فيه فيجيء هذا الدواء الشافي إلى القلب وقد خلا من مزاحم ومضاد له فينجع فيه .

ومنها : ان القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب ، كما أن الماء مادة النبات والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأول ، فكلما أحس بنبات الخير في القلب سعى في إفساده وإحراقه فأمر أن يستعيذ بالله عز وجل منه لئلاّ يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن.والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله أن الاستعاذة

---

(١) الاعراف ٢٠١ .
(٢) النحل ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ .

في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها .

ومنها : أن الملائكة تدنو من قارىء القرآن وتستمع لقراءته ، كما في حديث أسيد بن حضير لما كان يقرأ ورأى مثل الظلة فيها مثل المصابيح ، فقال عليه الصلاة والسلام : « تلك الملائكة » والشيطان ضد الملك وعدوه . فأمر القارىء أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه حتى يحضره خاص الملائكة ، فهذه منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين .

ومنها : ان الشيطان يجلب على القارىء بخيله ورجله ، حتى يشغله عن المقصود بالقرآن وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن ، فلا يكمل انتفاع القارىء به ، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله عز وجل منه .

ومنها : ان القارىء يناجي الله تعالى بكلامه والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء ، فأمر القارىء أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاة الله تعالى واستماع الرب قراءته .

ومنها : إن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلاّ إذ تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، والسلف كلهم على أن المعنى : إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته . قال الشاعر في عثمان :

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخره لاقى حمام المقادر

فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم السلام فكيف بغيرهم ؟ ولهذا يغلط القارىء تارة ويخلط عليه القراءة ويشوشها عليه فيخبط عليه نسانه ، أو يشوش عليه ذهنه وقلبه ، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارىء هذا ، أو هذا ، أو هذا ، وربما جمعهما له فكان من أهم الأمور الاستعاذة بالله تعالى منه .

ومنها : ان الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير أو يدخل فيه ، فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه ، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « ان الشيطان تفلت علي البارحة فأراد أن يقطع علي صلاتي — الحديث » وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله تعالى كان اعتراض الشيطان له أكثر ، فالشيطان بالرصيد للإنسان على طريق كل خير ، فهو بالرصد ولا سيما عند قراءة القرآن فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق ويستعيذ بالله تعالى منه أولاً ، ثم أخذ بالسير ، كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه ، ثم اندفع في سيره . . .

ومنها : ان الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتي به بعدها القرآن ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره ، بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع ان الذي يأتي بعدها هو التلاوة فإذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام الله تعالى ، ثم شرع ذلك للقارىء وإن كان وحده »[1] .

ب — **الاستعاذة في الصلاة** : والاستعاذة كذلك علاج لما يلقيه الشيطان في الصلاة من وساوس لينقص الأجر ويبعد الخشوع فتنفى بذلك صفة من صفات المؤمنين ، فعن ابن العلاء : ان عثمان بن أبي العاص أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذاك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثاً » ، قال ففعلت ذلك فأذهبه الله عني »[2] .

ج — **الاستعاذة عند الغضب** : عن سليمان بن مرد قال : « كنت جالساً مع النبي صلى الله عليه وسلم ورجلان يستبان ، فأحدهما أحمر وجهه وانتفخت

---

(١) اغاثة اللهفان ، ص ٩١ .
(٢) صحيح مسلم — كتاب السلام .

أوداجه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم إني لا علم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد . فقالوا له ان النبي صلى الله قال : تعوذ بالله من الشيطان فقال : وهل بي جنون »[1] ؟

ويأتي هذا العلاج متجانساً مع هذا المدخل الشيطاني ذلك « إن الغضب نوع من شر الشيطان ولهذا يخرج به عن صورته ويزين إفساد حاله كتقطيع ثوبه وكسر آنيته أو الإقدام على من أغضبه ونحو ذلك مما يتعاطاه من يخرج عن الاعتدال »[2] فلا يذهب هذا إلاّ بالاستعاذة من ذات المسبب له وامتداداً لهذا العلاج يأتي الدواء الثاني قراءة المعوذتين .

المعوذتين

فعن عقبة رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألم ترَ آيات أنزلت الليلة لم يرَ مثلهن : قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس[3] وقد روى البخاري بإسناده عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما، وقرأ فيهما « قل هو الله أحد » و« قل أعوذ برب الفلق » و« قل أعوذ برب الناس » ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات » .

وبلغ من أهميتها أن عائشة رضي الله عنها كانت تنفث عليه بهما في مرض موته – عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذات ، فلما مرض مرضه

(١) صحيح البخاري – كتاب بدء الخلق .
(٢) الفتح ، ج ١٠ ص ٤٦٧ .
(٣) مسلم .

الذي مات فيه جعلت أنفث عليه وأمسحه بيد نفسه لأنها كانت أعظم بركة من يدي »[1] .

آية الكرسي

عن ابن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم » قال : قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم » ؟ قال : قلت : الله لا إله إلاّ هو الحي القيوم . قال : فضرب في صدري وقال : « ليهنك العلم يا أبا المنذر »[2] ومع تلك العظمة التي ألبسها الله مما تحوي من أصول التوحيد كانت كالصواعق تصعق كل شيطان يقترب من المسلم عندما يقرأها قبل أن ينام؛ فعن أبي هريرة قال : « وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته وقلت : لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : دعني فإني محتاج وعلي عيال ولي حاجة شديدة . قال : فخليت عنه فأصبحت . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ؟ قال . قلت : يا رسول الله ، شكا حاجة شديدة وعيالاً ، فرحمته وخليت سبيله ، قال : « أما أنه قد كذبك وسيعود » فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه سيعود فرصدته ، فجاء يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : دعني محتاج وعلي عيال ، لا أعود ، فرحمته وخليت سبيله ، فأصبحت فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة » ؟ قلت : يا رسول الله ، شكا حاجة وعيالاً ،

---

(١) و (٢) مسلم .

فرحمته وخليت سبيله . قال : « أما أنه قد كذبك وسيعود » فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا آخر ثلاث مرات إنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود فقال : دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها قلت وما هي ؟ قال إذا أويت إلى فراشك فأقرأ آية الكرسي :

« الله لا إله إلاّ هو الحي القيوم » حتى تختم الآية ، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فخليت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما فعل أسيرك البارحة » ؟ قلت : يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها ، فخليت سبيله . قال : « وما هي » قال لي : إذا أويت إلى فراشك ، فأقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية « الله لا إله إلاّ هو الحي القيوم » وقال لي لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، وكانوا أحرص شيء على الخير ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما أنه صدقك وهو كذوب » ، تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟ قلت لا قال : ذاك شيطان »[1] .

خاتمة سورة البقرة

فقد ثبت في الصحيح من حديث ابن مسعود الأنصاري قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من قرأ هاتين الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه »[2] .

وقد قيل في معنى كفتاه « من قيام الليل وقيل من الشيطان وقيل من الآفات ويحتمل الجميع

---

(١) البخاري .
(٢) صحيح مسلم ــ فضائل القرآن .
(٣) شرح النووي ، ج ٦ ، ص ٩١ .

غض البصر

والنظر إلى ما نهى الله عنه من العورات من أشد مداخل الشيطان به أغرق الكثير في نار جهنم وجند به في حزبه الكثير وبسببه يضعف الإيمان وتنعدم لذته وتنعدم الفراسة وصفاء الفكر والتفكر. يقول الإمام ابن القيم « والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فالنظرة تولد خطرة ثم تولد الخطرة فكرة ، ثم تولد الفكرة شهوة ثم تولد الشهوة إرادة تقوى فتصير عزيمة حازمة ، فيقع الفعل ولا بد ، ما لم يمنع منه مانع ، وفي هذا قيل « الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده » قال الشاعر :

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة بلغت من قلب صاحبها ... كمبلغ السهم بين القوس والوتر
والعبد ما دام ذا طرف يقلبه ... في أعين العين موقوف على الخطر
يسر مقلته مـا ضر مهجته ... لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

ومن آفات النظر : إنه يورث الحسرات والزفرات والحرقات ، فيرى العبد ما ليس قادراً عليه ولا صابراً عنه وهذا من أعظم العذاب : أن ترى ما لا صبر لك عن بعضه ولا قدرة على بعضه »[1] وهذا هو السبب أو بعضه لإرشاد الله سبحانه وتعالى عباده بغض النظر وذلك علاج نافع وسد منيع لاحد أكبر مدخل من مداخل الشيطان كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: « ما تركت بعدي في الناس فتنة أضر على الرجال من النساء »[2] وأول ضرر على الرجال من النساء هو النظر إليهن إن كن محارم ، والسبب

---

(١) الجواب الكافي ، ص ١٠٦ .
(٢) مسلم .

في كونها أضر فتنة بعد الرسول على الرجال لأنها تحرق معنى العبودية في قلب صاحبها، وذلك ما بيَّنه شيخ الإسلام ابن تيمية إذ يقول: « النظر يؤكد المحبة فيكون علاقة لتعلق القلب بالمحبوب ثم صبابة لانصباب القلب إليه ، ثم غراماً للزومه للقلب كالغريم الملازم لغريمه ثم عشقاً إلى أن يصير تتيماً، والمتيم المعبد وتيم الله عبد الله فيبقي القلب عبداً لمن لا يصلح أن يكون أخاً بل ولا خادماً وهـــذا إنما يبتلى به أهل الاعراض عن الإخلاص لله »(١) ويتبع صوم العين صوم اللسان عن فضول الكلام وإيثار الصمت لسد المداخل .

امساك فضول الكلام واستبداله بالصمت

والكلام الذي لا يبنى عليه عمل ولا تقوم به مصلحة هو من فضول الكلام الذي لا يسمن ولا يغني من جوع وهو بذلك مضيعة للوقت أو كما يراه الإمام ابن القيم أشد من الموت « إضاعة الوقت أشد من الموت لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها »(٢) . والخوض بالكلام الذي لا يفيد إنما هو مدخل من مداخل إبليس فد تصل بصاحبها إلى درجة الضلال ورب كلمة يتلفظ بها المرء لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد مما بين المغرب والمشرق وذلـك ما رواه مسلم « إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب ».

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم الرعيل الأول هذا المدخل الشيطاني لئلا يقعوا في شباكه فيهوون في النار، فمما ذكره لهم « أن رجلاً قال : والله لا يغفر الله لفلان ، وإن الله قال : من ذا الذي يتألى عليّ أن لا

(١) فتاوى ابن تيمية (كتاب الطهارة) .
(٢) الفوائد ، ص ٣١ .

أغفر لفلان ، فإني غفرت لفلان واحبطت عملك »[1] فهذا الرجل أحبط الله أعماله كلها بسبب كلمة لم يلقِ لها بالاً ولم يزنها قبل قولها .

ولقد حرص صلى الله عليه وسلم على أمته كل الحرص في عدم الوقوع في ذلك فأعطاهم قاعدة منجية يطبقها جيل بعد جيل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »[2] وللصمت منافع أربعة جمعها الأحنف بن قيس في قوله : « الصمت أمان من تحريف اللفظ وعصمة من زيغ المنطق ، وسلامة من فضول القول ، وهيبة لصاحبه »[3] .

وليس غريباً على الأحنف أن يكون له علم بهذا الدواء لذلك المدخل فلقد كان يأخذ هذه الدروس على يد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال له يوماً : « يا أحنف من كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه »[4] .

ورب فئة من الناس يأخذون هذا الكلام على ما هو فيصمتون عن الحق والباطل معاً ظانين أنهم يسلموا بذلك من آفات اللسان ولا يدرون أنهم وقعوا في آفة من آفاته.يقول الإمام ابن القيم : « وفي اللسان آفتان عظيمتان إن خلص العبد من إحداهما لم يخلص من الآخرة ، آفة الكلام وآفة السكوت وقد يكون كل منهما أعظم إثماً من الأخرى في وقتها فالساكت عن الحق شيطان أخرس عاصٍ الله مراء مداهن إذا لم يخف على نفسه والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاصٍ لله وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته فهم بين هذين النوعين

---

(١) مسلم .
(٢) البخاري .
(٣) روضة العقلاء ، ص ٤٣ .
(٤) روضة العقلاء ، ص ٤٤ .

وأهل الوسط وهم أهل الصراط المستقيم كفوا ألسنتهم عن الباطل وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة فلا يرى أحدهم أنه يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة فضلاً أن تضره في آخرته »[1] .

ويكفي المسلم أن يعلم أن كل لفظة يلفظها تسجل عليه « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد »[2] ، « الوريد الذي يجري فيه دمه : وهو تعبير يمثل ويصور القبضة المالكة ، والرقابة المباشرة الدائمة ، وحين يتصور الإنسان هذه الحقيقة لا بد يرتعش ويحاسب . ولو استحضر القلب مدلول هذه العبارة وحدها ما جرؤ على كلمة لا يرضى الله عنها بل ما جرؤ على هاجسه في الضمير لا تنال القبول وإنها وحدها لكافية ليعيش بها الإنسان في حذر دائم وخشية دائمة ويقظة لا تغفل عن المحاسبة »[3] .

الأمر الذي حدا بدعاة الحق على مر القرون أن يطلقوا ألسنتهم كما قال الإمام ابن القيم في الحق ويؤثرون الصمت فيما عدا ذلك .

تكلم وسدد ما استطعت فإنما ... كلامك حي والسكوت جماد
فإن لم تجد قولاً سديداً تقوله ... فصمتك عن غير السداد سداد[4]

ويتم ذلك الصيام المبارك بصيام الأذن عن سماع ذلك الباطل .

---

(١) الجواب الكافي ، ص ١١٢ .
(٢) ق ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .
(٣) الظلال ، ج ٦ ، ص ٣٣٦٢ .
(٤) العوائق .

تنقية الاستماع أو صون الأذن عن سماع الباطل

وكما أن أصحاب الباطل يطبقون هذه القاعدة تطبيقاً دقيقاً يفوق في كثير من الأحيان دقة أصحاب الحق فيصمون آذانهم عن سماع الحق ، كما قال الله سبحانه وتعالى على لسان نوح عليه السلام : « وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً »[1] وتثار مشاعرهم وينزعجون عند سماعهم للحق . . . عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بهـا وابتغ بين ذلك سبيلاً » قال نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم متوارٍ بمكة ، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به فقال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : « ولا تجهر بصلاتك » فيسمع المشركون قراءتك « ولا تخافت بها » عن أصحابك ، اسمعهم القرآن ، ولا تجهر ذلك الجهر « وابتغ بين ذلك سبيلاً » يقول بين الجهر والمخافتة[2] .

فأولى بأصحاب الحق أن يصونوا آذانهم عن سماع الباطل بشتى أنواعه من غناء ولمز وغيبة ونميمة واستهزاء وفتنة وتشكيك . . .

والأذن كالنحاس في سرعة توصيل الحرارة إلى القلب فإذا كان المسموع باطلاً تأثر به القلب فإما أن تزداد الحرارة فينحرق فيصبح مولعاً بسماع الباطل ولا يحب سماع غيره أو تصل الحرارة ضعيفة فتشغله في كثير من الأحيان عن سماع الحق .

والداعية المخلص لا يقول قول ذلك الساذج « ساعة لربي وساعة لقلبي »

---

(١) نوح ٧ .

(٢) مسلم .

إنما هو يعلم مبادىء المفـــاصلة بكاملها وصون الأذن عن سماع الباطل أحد مبادئها . . . « إن الجاهلية جاهلية ، والإسلام إسلام . والفارق بينهما بعيد . والسبيل هو الخروج من الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته، هو الإنسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها والهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه وأول خطوة في الطريق هي تمييز الداعية وشعوره بالانعزال التام عن الجاهلية تصوراً ومنهجاً وعملاً . الانعزال الذي لا يسمح بالالتقاء في منتصف الطريق والانفصال الذي يستحيل معه التعاون إلاّ إذا انتقل أهل الجاهلية في جاهليتهم بكليتهم إلى الإسلام لا ترقيع ولا أنصاف حلول . ولا التقاء في منتصف الطريق . . . مهما تزيت الجاهلية بزي الإسلام ، أو ادعت هذا العنوان »(١) .

وهي مع ذلك ليست بدعة مستحدثة في منهج الدعوة بل هي أصل من أصولها فقد وجه الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أصحاب دعوة الحق إلى ذلك فقال : « وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتّى يخوضوا في حديث غيره وإمـــا ينسينّك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين »(٢) . . .

ويجب أن تكون هناك فئة خاصة من الدعاة معدين إعداداً كاملاً يقومون بمهمة سماع الباطل ليس للاستمتاع به إنما للرد عليه ومع هذا يجب على هذه الفئة أن تضع ميزاناً لها بأن لا تستمع إلى الباطل أكثر من سماعها للحق . . .

هذا هو الصيام الذي فقهه أصحاب الحق ولم ينسوا مع ذلك الصيام عن الطعام فإن له مكاناً بين الأدوية .

---

(١) الظلال ، ج ٦ ص ٣٩٩٢ .
(٢) الانعام ٦٨ .

الصيام

والصوم هو العلاج البديل للزواج لمن ليست له القدرة على مؤنة الزواج وذكر صلى الله عليه وسلم الحكمة من استخدام هذا العلاج فقال : « فإنه له وجاء » . . .

« فقوله — له وجاء — أصله الغمز ، ومنه وجأه في عنقه إذا غمزه دافعاً له ، ووجأه بالسيف طعنه به . ووجأ أنثييه غمزها حتى رضها فإن الوجاء رض الانثيين »[1] وبهذا يضعف الدافع إلى الشهوة التي تشغل العبد عن مهام الأمور وتوقعه في مشاكل كثيرة وبذلك يكون الصيام سد منيع لمدخل كبير من مداخل الشيطان . . .

أما أولئك الذين يملكون الباءة وهي مؤنة الزواج ، فالزواج أفضل لهم لما فيه من منافع كثيرة ، وليس كل زواج يصلح أن يكون دواء بل يكون دواءً إذا كانت الزوجة صالحة،أما إن كانت غير ذلك فربما يكون العكس فتكون عدوة له بدل أن تكون معينة.هذا ما قاله الله في هذا الصنف « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم ... »[2]

الزواج

والزواج ذاته به علاج لكثير من مداخل الشيطان إذ به يكون الدافع أقوى لغض البصر وإحصان الفرج وقطع الخواطر التي يلقيها عدو الله في

---

(١) فتح الباري ، ج ٩ ص ١١٠ .
(٢) التغابن ١٤ .

نفس العازب ، وهو تعليم على حمل المسؤولية ومدرسة لتعليم الدعوة إلى آخر ذلك من منافع . . .

ولقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم الشباب على الزواج وذلك لعلمه « إن الغالب وجود قوة الداعي فيهم إلى النكاح بخلاف الشيوخ »[1] ، فقال : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »[2] ، وقوله : « من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج »[3] ، ولا يقف الشيطان أمام هذا الدواء صامتاً بل يحاول أن يجعل ثغرات فيه أو أن يهدمه ومن فيه فلذلك كان يلزم أن يوصف دواء ملازماً لدواء الزواج وهو تقوية الرابطة الأسرية لسد جميع الثغرات وتقوية ذلك الحائط المنيع . . .

تقوية الرابطة الاسرية

إن تفكيك الأسرة هو أحد مداخل الشيطان وهو واضح في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته وكيف أمرهم الشيطان بقتله وكذلك واضح في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي سفيان عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيئاً قال ثم يجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته . قال فيدنيه منه ويقول نعم أنت ». والضمانات التي تكفل ترابط الأسرة كثيرة في الإسلام.

---

(١) فتح الباري ، ج ٩ ص ١٠٨ .
(٢) و (٣) البخاري .

منها: أن تختار الزوجة الصالحة وإبعادها قدر الإمكان عن المجتمع الجاهلي الذي تعيش فيه ولو لفترة والعيش في مجتمع إسلامي . . .

ومنها : تربية الأطفال تربية إسلامية والعدل فيما بينهم .

ومنها : امتثال حديث الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يقول: « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » (١) . وأن تكون الابتسامة على وجهه دائماً أمام زوجه وأبناءه وملاعبة الزوجة والمزاح معها كما كان يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم وينصح أصحابه به عندما قال لجابر رضي الله عنه «فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك » (٢) وملاعبة الأطفال وتقبيلهم ومنها بر الوالدين وهذا ما أمر الله به كي تتكامل صورة البناء الأسري فقال تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً » (٣) .

ومنها أيضاً : صلة الرحم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » (٤) وأكبر ضمان في تقوية الرابطة الأسرية والرابطة الأخوية هو القول الحسن .

---

(١) صحيح الجامع الصغير .
(٢) البخاري .
(٣) الاسراء ٢٣ .
(٤) متفق عليه .

القول الحسن

القول الحسن هو الدواء لما يلقيه الشيطان من نزغات في نفوس أفراد جماعة الحق « وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ان الشيطان ينزغ بينهم »[1] يأمرهم الله أن يقولوا التي هي أحسن « على وجه الإطلاق وفي كل مجال فيختاروا أحسن ما يقال ليقولوه . . . بذلك يتقون أن يفسد الشيطان ما بينهم من مودة فالشيطان ينزغ بين الأخوة بالكلمة الخشنة تفلت وبالرد السيء يتلوها فإذا جو الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء. والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب تندي جفافها وتجمعها على الود الكريم »[2].

ولا عجب أن ترقى الكلمة الطيبة إلى منزلة الصدقة حيث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « والكلمة الطيبة صدقة »[3] وكانت وسيلة للاتقاء من النار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة »[4] .

وحتى إذا وصل الحال إلى الجدل فيكون جدلاً في إطار الآداب الإسلامية والكلمة الطيبة وهي الجدال الحسن يكون « بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل لكن الاقناع والوصول إلى الحق .

فالنفس البشرية لها كبريائها وعنادها وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلاّ بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي

(١) الاسراء ٥٣ .
(٢) الظلال ، ج ٤ ، ص ٢٢٣٤ .
(٣) و (٤) البخاري .

وقيمتها هي عند الناس فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلاً عن هيبتها واحترامها وكيانها. والجدل بالحسنى هو الذي يطامن من هذه الكبرياء الحساسة ويشعر المجادل أن ذاته مصونة وقيمته كريمة وأن الداعي لا يقصد إلاّ كشف الحقيقة في ذاتها والاهتداء إليها في سبيل الله ، لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر »[1] .

وحتى تكون الكلمة الطيبة أكثر تأثيراً في نفس المخاطب لا بد أن تصطحب بابتسامة هادئة لا تفارق وجه صاحب الكلمة الطيبة . . .

الابتسامة

إن من أهم الخطوات التي يخطوها الداعية مع المدعو في بـــداية الطريق هي كسب القلب . . . فعندما يخطو الداعية هذه الخطوة بنجاح تنجلي الغرابة والاشمئزاز من المدعو لهذا الدواء الجديد فيبدأ يشرب ويأكل كل ما يقدم له من ذلك الدواء بشغف ويشتاق إليه إن تأخر عنه .

كما أن العوامل التي تكفل تحقيق هذه الخطوة كثيرة على رأسها تلك الابتسامة الصافية التي يطلقها الداعية ، صافية من كل المصالح الدنيوية خالصـة لله وحده . . . فهي دائمة لا تنقطع . . . أما الابتسامات الأخرى المتعلقة بتلك المصالح فإنها تختفي بمجرد انتهاء المصلحة .

ولقد لبس إبليس على كثير من الدعاة في تعبيس وجوههم وأوهمهم أن ذلك من الجد الذي أمر به الإسلام .

---

(١) الظلال ، ج ٤ ، ص ٢٢٠٢ .

فكم من الخلق قد نفر من ذلك العبوس . . . وليت الأمر اقتصر على العامة فقط بل تعدى ذلك إلى أفراد جماعة الدعوة الواحدة ، وكم من أخ ألقى الشيطان في قلبه على أخيه ما ألقى بسبب العبوس واختل الرباط .

إن الداعية الفقيه بأبعاد الدعوة لا تخفى عليه مثل هذه الخطوة الأساسية والعوامل التي تكفل نجاحها ، فترى الابتسامة دائماً مرتسمة على وجهه باشاً في وجوه إخوانه كي تصفى القلوب من نزغات الشيطان ويقوى رباط الأخوة .

عن سماك بن حرب قال : قلت لجابر بن سمرة رضي الله عنه : أكنت تجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم كثيراً . كان لا يقوم من مصلاه الذي يصلي فيه الصبح — أو الغداة — حتى تطلع الشمس فإذا طلعت الشمس قام ، وكانوا يتحدثون ، فيأخذون من أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم »[1] . . . بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يجعل ذلك من المعروف عندما قال : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق »[2] .

وإن أساء عليه أحد الحمقى أو تعرض لتصرف غريب فإنه يقابل تلك الإساءة بابتسامة تخفي من ورائها فقه « عميق » راجياً أن تكون هذه الابتسامة سبباً في إنقاذ عبد قد تدلى بالنار وكاد أن يسقط فيها . . .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة[3] شديدة ، نظرت إلى صفحة عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته ، ثم قال : يا محمد مر لي من مال

---

(١) و (٢) مسلم .
(٣) جذبه .

الله الذي عندك ، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك ، ثم أمر له بعطاء »(١) .

أخي بالله هكذا يكون فقه الدعوة ، فلا تبخل بابتسامة قد تكون سبباً في إنقاذ عبد أو إزالة هم قد أصاب أخاً لك .

وأنفق من هذه الصدقة ولا تخش الفقر « ومن يوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون »(٢) .

الانفاق في سبيل الله

والشيطان يقذف بالنفس الخوف من الفقر والانكماش عن الإنفاق في سبيل الله ، ويصور للإنسان أن ذلك المال ملك له وينسيه أنه لله وأنه جاء إلى هذه الدنيا بلا مال عاري الجسد لا يستره شيء ولا يملك شيء والله سبحانه وتعالى يأمر المؤمنين بأكثر من آية أن ينفقوا في سبيل الله وينبههم أنه هو المالك . يقول الله تعالى : « وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت »(٣) وكان صلى الله عليه وسلم يعلم صحابته هذا الدواء لمحاربة عدو الله ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من يوم يصبح العباد فيه إلاّ ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم اعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللهم اعط ممسكاً تلفاً »(٤) وما كان يقول (لا) لأحد سأله شيء . عن جابر رضي الله عنه قال: « ما سئل رسول الله صلى الله

---

(١) مسلم .
(٢) التغابن ١٦ .
(٣) المنافقون ١٠ .
(٤) متفق عليه .

عليه وسلم شيئاً قط فقال لا »[1] وكان ينفق نفقة الذي لا يخشى الفقر ، نفقة الذي هو مستيقن بأن المال ليس ملكاً له . فعن أنس رضي الله عنه قال : « ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام شيئاً إلاّ أعطاه.ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى قومه فقال يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر »[2] هكذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم ورعيله يتعاملون مع الشيطان ومداخله ، فلقد عقدوا البيعة مع الله وباعوا أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة والذين نسوا هذا العقد وأوهمهم إبليس بأن المال مالهم وأنساهم ذكر الله ، ومالوا قليلاً أو كثيراً إلى الدنيا ، لا يرفعهم عن ذلك الميلان إلاّ ذكر الله . . .

الذكر

والإنسان متى ما تذكر الله وشعر أنه مراقبه في كل حركة وهمسة ومتى ما تذكر أنه مكشوف أمام الله سره وعلانيته وأنه قادر على أن يهلكه متى شاء وأيقن ذلك في قلبه يكون من الصعب أن يعصيه . . . وعندما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[3] لدلالة واضحة على أن الزاني حين يزني ينسى أن هناك رقيباً يرقبه وكاتباً يكتب ما يفعل ينسى أن عليه من بيده هلاكه ، فلذلك تنتفي صفة الإيمان عنه في تلك اللحظات وكذلك حال السارق وشارب الخمر .

---

(١) متفق عليه .
(٢) رواه مسلم وله بقية .
(٣) مسلم .

إذن هو ذلك النسيان الذي يسبب الشقاء الأبدي في نار جهنم ومسببه هو عدو الله إبليس وهو من أكبر مداخله على ابن آدم « ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة »[1] والدواء لهذا الداء هو ذكر الله على كل حال فبه ينتصر أصحاب الحق وبدونه يهزم أصحاب الحق وهو السبب الذي أنقذ الله به نبي الله يونس عليه السلام من بطن الحوت وإلّا لمكث في بطن الحوت إلى ما يشاء الله .

وكل جماعة معرضة لذلك الانتكاس وكل داعية إلى الله معرض للانتكاس متـى نسـي ذكر الله « وبالذكر يصرع العبد الشيطان كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان ، قال بعض السلف : إذا تمكن الذكر من القلب فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان . فيجتمع عليه الشياطين فيقولون : ما لهذا ؟ فيقال : قد مسه الإنسي »[2] « والذكر عنصر أساسي في منهج هذا الدين ، إنه ليس منهج معرفة نظرية وجدل لاهوتي ، إنه منهج حركة واقعية لتغيير الواقع البشري . وللواقع البشري جذوره وركائزه في نفوس الناس وفي أوضاعهم سواء . . . وتغيير هذا الواقع الجاهلي إلى الواقع الرباني الذي يريده الله للناس وفق منهجه مسألة شاقة عسيرة تحتاج إلى جهد طويل وإلى صبر عميق . وطاقة صاحب الدعوة محدودة ، ولا قبل له بمواجهة هذه المشقة دون زاد يستمده من ربه »[3] .

ومتى ما استيقظ ذلك الناسي من نومه وذكر الله ، تكون أول ثمرة يقطفها من تلك الشجرة المباركة هي ثمرة الجهاد في سبيل الله ، ذلك لأنه تذكر الله . . .

---

(١) المائدة ٩١ .
(٢) مدارج السالكين ، ج ٢ ، ص ٤٢٤ .
(٣) الظلال ـ طريق الدعوة ، ص ٢١٦ .

الجهاد

يقول ابن القيم ؛ قال تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » علق سبحانه الهداية بالجهاد فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً وأفضل الجهاد جهاد النفس وجهاد الهوى وجهاد الشيطان وجهاد الدنيا ؛ فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته ومن ترك الجهاد فإنه من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد »[1] ويتسرب عليه الشيطان من كل جهة ويضع مخالبه في جسده حتى يقطعه إرباً إرباً . أما من جاهد هذه الأربعة فقد أغلق جميع المنافذ على عدو الله ووضع الجنود على أبواب القلب تمنع أي مستعمر من الدخول . . .

وهذه الأربعة هي الوقود الذي يتزود منه الدعاة في حركتهم لتغيير هذا الواقع الجاهلي، وبغير هذا الوقود تكون حركتهم ميتة لا روح فيها ولا انطلاق، مزخرفة من الخارج ولكن داخلها خواء . . .

وللجهاد مراتب أربعة ذكرها الإمام ابن القيم ؛ اثنان منها تتعلق بجهاد الفرد لنفسه ، وهما : ١ — جهاد النفس . ٢ — جهاد الشيطان .

والأخرى تتعلق بجهاد الفرد للآخرين ، وهما ، ١ — جهاد الكفار ، ٢ — جهاد المنافقين .

جهاد النفس : أربع مراتب أيضاً :

أحدها : أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلاّ به ومتى فاتها علمه شقيت في الدارين .

---

(١) الفوائد ، ص ٥٩ .

الثانية : أن يجاهدها على العمل به بعد علمه وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها .

الثالثة : أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله .

الرابعة : أن يجاهدها على الصبر لتحمل مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانياً حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه فمن عَلِمَ وعَلَّم وعمل فذاك يدعى عظيماً في ملكوت السماء.

وأما جهاد الشيطان : فمرتبتان :

أحدهما : جهاده على دفع ما يلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك القادمة في الإيمان . . .

الثانية : جهاده على دفع ما يلقى إليه من الإرادات والشهوات . فالجهاد الأول يكون بعده اليقين والثاني بعده الصبر. قال تعالى : « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » فأخبر أن إمامة الدين إنما تنال بالصبر واليقين ، فالصبر يدفع الشبهات والإرادات واليقين يدفع الشكوك والشبهات .

وأما جهاد الكفار والمنافقين : فأربع مراتب :

بالقلب واللسان والمال والنفس .

وجهاد الكفار أخص باليد وجهاد المنافقين أخص باللسان .

وأما جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات : فثلاث مراتب :

الأولى : باليد إذا قدر فإن عجز انتقل إلى اللسان فإن عجز جاهد بقلبه فهذه ثلاثة عشر مرتبة من الجهاد ومن مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق »[1] .

ولا يستطيع هذا الإنسان الضعيف أن يقوم بهذه المراتب كلها لوحده ، ولئن قام بها لوحده فإن الثمار ستكون قليلة كثير منها غير ناضج وإذا قام بها ضمن جماعة فإن ذلك أحب إلى الله قال تعالى : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص »[2] فيسهل بذلك الطريق وتزداد الثمار الناضجة إن شاء الله .

الالتزام بالجماعة

إن الالتزام بالجماعة الصالحة من الأمور التي يبغضها عدو الله ، لأن الجماعة الصالحة هي أحد الأسباب لإنقاذ الإنسان من النار ، وهو بطبيعته يدعو أولياءه إلى عذاب السعير ، فكل ما يبعد الإنسان عن عذاب السعير يكرهه عدو الله .

والإنسان يتأثر بالوسط الذي يعيش فيه وغالباً ما يأخذ صفات ذلك المجتمع . ومصداق ذلك ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه »[3] فأبواه لأنهما هما المجتمع الأول الذي يعيشْ فيه فبهما ترتسم شخصيته ، ويكتمل بناء الشخصية من تأثيرات المجتمع الآخر الذي يعيش فيه وهو مجتمع الأشخاص الذين يحتك في بعضهم ويرافق البعض الآخر ، ومن هذا كان لا بد أن يلتزم المسلم

---

(١) زاد المعاد ، ج ٢ ص ٣٩ .
(٢) الصف ٤ .
(٣) رواه البخاري .

بالجماعة الصالحة ، ولا اختيار له في ذلك خاصة بمثل هذا الوقت الذي أُبعد فيه منهج الله عن الحياة واستبدلوه بالمناهج الوضعية .

ويروي المفسرون أن بعض المؤلفة قلوبهم طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم مجلساً خاصاً وينحي عنهم فقراء الصحابة فأنزل الله الله تعالى « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تَعْدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا »[1] .

« أصبر نفسك مع هؤلاء ، صاحبهم وجالسهم وعلمهم ، ففيهم الخير ، وعلى مثلهم تقوم الدعوات فالدعوات لا تقوم على من يعتنقونها لأنها غالبة ، ومن يعتنقونها ليقودوا بها الاتباع ومن يتبعونها ليحققوا بها الأطماع ، وليتجروا بها في سوق الدعوات تشترى منهم وتباع ، إنما تقوم الدعوات بهذه القلوب التي تتجه إلى الله خالصة له ، لا تبغي جاهاً ولا متاعاً ولا انتفاعاً إنما تبغي وجهه وترجو رضاه »[2] . . .

ولقد وعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أراد ربه منه حينما أوصاه بألاّ يفارق الجماعة الصالحة « ولا تعد عيناك عنهم » فربى أصحابه على هذه الوصية فتارة يبين لهم أن المفارق للجماعة كأنه خلع ثوب الإسلام منه فيقول : «من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة[3] الإسلام من عنقه[4] » وتارة اخرى يقول لهم الجماعة رحمة والفرقة عذاب »[5] إذ أن الواحد البعيد عن الجماعة الصالحة مهيىء لأن يفترسه الشيطان فهو يتصيد الشاة البعيدة عن القطيع ؛ وكذلك ما روى البخاري في صحيحه عن حذيفة بن اليمان عندما كان يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الشر مخافة أن يقع فيه وكان الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) الكهف ٢٨ .
(٢) الظلال ، ج ٤ ص ٢٢٦٨ .
(٣) العروة في الحبل .
(٤) صحيح الجامع الصغير .
(٥) الاحاديث الصحيحة ، ج ٢ ص ٦٦٧ .

يصف له حالة المسلمين بالمستقبل بوحي من الله حتى يقول له حذيفة فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها قلت: (أي حذيفة) صفهم لنا قال : هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا. ثم يقول حذيفة للرسول صلى الله عليه وسلم : فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال :. تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ، ثم قال حذيفة : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟قال فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك » بهذا كان يوصيهم لعلمه ما للجماعة من الأهمية في إزالة الباطل . ولكن الجماعة ليست آخر دواء لمحاربة عدو الله والانتصار عليه إنما تتبعها أدوية كثيرة لعلاج ما يستجد من أمراض خلال ممارسته العمل الجماعي وكذلك لتقوية النفس على تحمل عبء هذا الطريق الصعب وتزكيتها « قد أفلح من زكاها »[1] من هذه الأدوية ــ المحاسبة . . .

المحاسبة

ولقد أعد هذا الدواء نتيجة للأمراض التي يلاقيها الداعية خلال ممارسته العمل الجماعي من العجب والرياء وحب الرياسة والكبرياء عن أخذ النصيحة وما شابه ؛ كل ذلك يزرعه عدو الله في طريق الداعية ليجعله يحيد عن الطريق فتتقطع الجذور وتتوقف الأثمار . . .

فكان من واجبات الداعية أن يتجرع هذا الدواء بين كل آونة وأخرى يراجع نفسه ويصفيها مما علق بها من شوائب ويعزم أن يصقلها بالإخلاص والإقلاع عما علق في نفسه . . .

---

(١) الشمس ٩ .

قــال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، ولتنظر نفس مــا قدمت لغد » (١) يقول الإمام ابن قدامة المقدسي : « وهذه إشارة إلى المحاسبة بعد مضي العمل ولذلك قال عمر رضي الله عنه حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا . وقال الحسن: المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه . وقال إن المؤمن يفجأه الشيء يعجبه فيقول : والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي ، ولكن والله ما في حيلة إليك هيهات حيل بيني وبينك . ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ما أردت إلى هذا ، مالي ولهذا ، والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله.

ومعنى المحاسبة أن ينظر في رأس المال ، وفي الربح ، وفي الخسران لتتبين له الزيادة من النقصان فرأس المال في دينه الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصي وليحاسبها أولاً على الفرائض » (٢) أو هي كما يقول الإمام البنا : « استعراض أعمال اليوم ساعة النوم فإن وجد الأخ خيراً فليحمد الله وإن وجد غير ذلك فليستغفر وليسئل ربه ثم يجدد التوبة وينام على أفضل العزائم » (٣) أما ذلك الذي يترك نفسه بلا فطام وبلا حساب ولا تزكية فهو معرض لمرض قسوة القلب أو الميلان إلى الدنيــا فأولى دواء له معرفة حقيقة الدنيا . . .

معرفة حقيقة الدنيا

وقد مثل القرآن الكريم الدنيا بصورة رائعة إذ يقول تعالى : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح ». بهذه اللمسات السريعة المتلاحقة يرسم القرآن الدنيا

(١) الحشر ١٨ .
(٢) مختصر منهاج القاصدين ، ص ٣٩٣ .
(٣) رسالة المأثورات .

تناسباً مع قصرها [1] ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم مصوراً قصرها : « ما الدنيا في الآخرة إلاّ مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بمَ يرجع » [2] وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بالسوق والناس كنفتيه ، فمر بجدي أسك [3] ميت فتناوله فأخذ بإذنه ثم قال : « أيكم يحب أن هذا له بدرهم » ؟ فقالوا : ما نحب انه لنا بشيء وما نصنع به ؟ قال : « أتحبون أنه لكم » ؟ قالوا : والله لو كان حياً كان عيباً انه أسك فكيف وهو ميت ؟ فقال : « فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم » [4]

والغريب وعابر السبيل إسمان يطلقان على الذي يمر ببلد ليس هو من أهلها ولا هي موطنه الأصلي — وهذه هي حقيقة الدنيا — انها ليست الموطن الاصلي وإننا مسافرون أو عابرو سبيل خلال هذه الدنيا كما عبر عن ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم إذ يقول لابن عمر رضي الله عنه : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » وإذا كان كذلك فما أجدر بعابر السبيل أن يتزود لإكمال رحلته لموطنه الأصلي فهناك الراحة الحقيقية . . . وعندما يصل هناك ينتهي النصب وهذا هو الفارق بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل أو قل انه أحد الفوارق بأن أصحاب الباطل يعتبرون الدنيا دار إقامة والموطن الأصلي لهم وذلك من تزيين الشيطان ومن هذا المنطلق فإنهم يتكالبون عليها مستصغرين كل منكر يفعلونه عليها ويتجاذبونها حتى تهلكهم . ولقد أجاد ذلك الشاعر الذي خاطب تلك الفئة المتكالبة على الدنيا ووصف لهم الدنيا بأنها منزل ركب حلوا به ثم رحلوا وأن العيش فيها نكد وأن ساكنها لا يسوغ له عيش لما يلاقيه فيها من الروعات المستمرة.تريد نفسه الهروب ، والموت يتبعها ، ويسعى الساكن فيها كل حياته لغيره والقبر لا يرث منه إلاّ الأعمال الصالحة .

---

(١) التصوير الفني بالقرآن — بتصرف .
(٢) مسلم .
(٣) به عيب .
(٤) مسلم .

ألا ترى إنما الدنيا وزينتها ... كمنزل الركب حلوا ثمت ارتحلوا
حتوفها رصد وعيشها نكد ... وصفوها كدر وملكها دول
تظل تفزع بالروعات ساكنها ... فما يسوغ له عيش ولا جذل
كأنه للمنايا والردى غرض ... تظل فيه سهام الدهر تنتضل
والنفس هاربة والموت يتبعها ... وكل عثرة رجل عندها جلل
والمرء يسعى بما يسعى لوارثه ... والقبر وارث ما يسعى له الرجل[1]

ولقد مثل ابن القيم الدنيا « بالبحر الذي لا بد للخلق كلهم من ركوبه ليقطعوه إلى الساحل الذي فيه دورهم وأوطانهم ومستقرهم ولا يمكن قطعه إلا في سفينة النجاة فأرسل الله رسله لتعرف الأمم اتخاذ سفن النجاة وتأمرهم بعملها وركوبها ، وهي طاعته وطاعة رسله وعبادته وحده ، وإخلاص العمل والتشمير للآخرة وإرادتها والسعي لها سعيها فنهض الموفقون وركبوا السفينة ورغبوا عن خوض البحر لما علموا أنه لا يقطع خوضاً ولا سباحة وأما الحمقى فاستصعبوا عمل السفينة وآلاتها والركوب فيها ، وقالوا نخوض البحر فإذا عجزنا قطعناه سباحة وهم أكثر أهل الدنيا فخاضوه ، فلما عجزوا عن الخوض أخذوا في السباحة حتى أدركهم الغرق ونجا أصحاب السفينة كما نجوا مع نوح عليه السلام وغرق أهل الأرض » . وهكذا يغوي الشيطان من ضل ويغريهم بالسباحة وسط أمواج الفتن والشهوات حتى يغرقون في نار جهنم . . . ويصادف الداعية في طريقه أخبث الأمراض على الإطلاق وهو الرياء أو كما سماه ابن القيم الشرك في العبادة ولا دواء لهذا المرض الخبيث إلا الإخلاص لله .

---

(١) المدهش ١٩٤ .

الاخلاص

تعريفه : « الإخلاص هو تجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب فإذا امتزج قصد التقرب بباعث آخر من رياء أو غيره من حظوظ النفس فقد خرج عن الإخلاص »[1] ومن كلام الفضيل بن عياض : « ترك العمل من أجل الناس : رياء والعمل من أجل الناس : شرك ، والإخلاص : أن يعافيك الله منهما »[2] .

فعندما ينتفي عنصر الإخلاص من الأعمال ينتج نوع من الشرك يطلق عليه :

الشرك في العبادة : والشرك في العبادة « يصدر ممن يعتقد أنه لا إله إلاّ الله وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع إلاّ الله وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ولكن لا يخلص لله في معاملته وعبوديته بل يعمل لحظ نفسه تارة وطلب الدنيا تارة ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة ولله من عمله وسعيه نصيب ولنفسه وحظه وهواه نصيب وللشيطان نصيب هذا حال أكثر الناس . فالرياء كله شرك .قال تعالى: «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »[3] أي كما أنه إله واحد لا إله سواه فكذلك ينبغي أن تكون العبادة لله وحده »[4] .

فالذي لا يضع الإخلاص كعنصر أساسي في أعماله لا بد وأن تظهر بعض الآثار .

آثار الرياء : ومن أول هذه الآثار :

١ — عدم قبول العمل فقد قال تعالى : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل

---

(١) تهذيب موعظة المؤمنين ، ج ٢ ص ٢٢٩ .
(٢) مدارج السالكين ، ج ٢ ص ٨٩ .
(٣) الكهف ١١٠ .
(٤) الجواب الكافي ، ص ٩١ .

فجعلناه هباء منثوراً » وهي الأعمال التي كانت على غير المنهج الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت خالية من الإخلاص لوجه الله وحده .

ولقد سئل الفضيل عن العمل المقبول عند الله فقال : « هو أخلصه وأصوبه قالوا : يا أبا علي ، ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : إن العمل إذا كان خالصاً ، ولم يكن صواباً، لم يقبل . وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً ، لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً والخالص : أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنّة »(١) .

٢ — يكون مبغوضاً بين الناس وذلك أن المرائي يدخل في نطاق دائرة الذين يبغضهم الله لأن قرباته غير خالصة لوجه الله وحده ، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل إذا أحب عبداً دعا جبريل عليه السلام فقال : إني أحب فلاناً فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله عز وجل يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، قال : ثم يوضع له القبول في الارض ، وإذا أبغض الله عبداً دعا جبريل عليه السلام ، قال : إني أبغض فلاناً ، فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادى في أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً فابغضوه، فيبغضونه ، ثم توضع له البغضاء في الأرض »(٢) .

٣ — إن هذا الصنف من الناس هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة وذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به،فعرفه نعمه، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه

---

(١) مدارج السالكين ، ج ٢ ص ٨٩ .
(٢) صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة .

حتى ألقي في النار . ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به ، فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال فما فعلت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به ، فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها ، إلاّ أنفقت فيها لك قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال: هو جواد ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار » (١) .

وبالإضافة إلى هذه الآثار فإن هذا الصنف من الدعاة هم الذين يعيقون عجلة الدعوة من التقدم بخطوات أوسع . . .

« وقديماً قال ابن الجوزي صادقاً : « إنما يتعثّر من لم يخلص » وهو وإن كان يعني بذلك الفرد ، إلاّ أن للمجموعة أيضاً قلباً واحداً مشتركاً يضره مرض البضعة الصغيرة منه كما يضر مرض بعض قلب الفرد ذاك الفرد ، فإذا مرض داعية برياء : تضررت جماعة الدعاة كلها بمرضه ، وتعثرت ، ومرض قلبها ، حتى يتخلص منه بتوبة ، أو تتخلص منه بإبعاد » (٢) .

وهذه الآثار بمجموعها كانت سبباً في خوف الصحابة من هذا المرض وكانوا يدعون الله بأن تكون أعمالهم كلهـــا خالصة لوجه الله لئلاّ يصيبهم بعض هذه الآثار «وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اللهم اجعل عملي كله صالحاً واجعله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً » (٣) .

وتكتمل صورة هذا الدواء عندما يحاول المسلم مضادة إبليس فيما يلقى

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد .
(٢) العوائق ، ص ١٢٣ .
(٣) الجواب الكافي ، ص ٩١ .

في نفسه من تشكيك في إخلاصه. ومن أمثلة ذلك انه إذا شككه في إخلاصه بطول السجود في المسجدُ عليه أن يطيل السجود في بيته لوحده وإذا شككه في إخلاصه بالإنفاق علناً عليه أن ينفق سراً وهو اتزان بالأعمال لكي تخرج خالصة لوجه الله ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم غافلاً هذا الجانب التربوي الكبير ، فمما يرويه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن امرأة سوداء كانت تقم المسجد أو شاباً ، ففقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل عنها أو عنه ، فقالوا : مات ، (ماتت) قال : « أفلا كنتم آذنتموني » ؟ قال : فكأنهم صغروا أمرها أو أمره ، فقال : « دلوني على قبرها » ، (قبره) فدلوه فصلى عليها ثم قال : « إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها ، وإن الله ينورها بصلاتي عليهم » .

فهو تدريب عملي على الإخلاص فكأنه يقول لهم إن كانت صلاتكم على الميت خالصة لله فهي لا تكون فقط على الغني والمعروف بين الناس وصاحبكم إنما هي على الفقير أيضاً والغير معروف من الناس . . .

ولئن سلم الداعية من هذا المرض الخبيث سلم من كل مرض دونه إن شاء الله ، ولكن تبقى أمراض أقل منه خطورة تصيب بعض الدعاة ومن هذه الأمراض – الوسوسة – وخير دواء لها :

اتباع السنة الصحيحة

وهو أهم علاج للموسوسين . قال الإمام ابن القيم :

« فمن أراد التخلص من هذه البلية فليستشعر ان الحق في اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله وفعله ، وليعزم على سلوك طريقته عزيمة من لا يشك أنه على الصراط المستقيم ، وأن من خالفه من تسويل إبليس ووسوسته. ويوقن أنه عدو له لا يدعوه إلى خير « إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » .

وليترك التعريج على كل ما خالف طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم كائناً ما كان فإنه لا يشك أن رسول‌الله صلى الله عليه وسلم كان على الصراط المستقيم . ومن شك في هذا فليس بمسلم ومن علمه فإلى أين العدول من سنته ؟ وأي شيء يبتغي العبد غير طريقته ؟ ويقول لنفسه : ألست تعلمين ان طريقة رسول‌الله صلى الله عليه وسلم هي الطريق المستقيم ؟ فإذا قالت له: بلى، قال لها: فهل كان يفعل هذا ؟ فستقول لا. فقل لها: فماذا بعد الحق إلاّ الضلال؟ وهل بعد طريق الجنة إلاّ طريق النار ؟ وهل بعد سبيل الله وسبيل رسوله إلاّ سبيل الشيطان ؟ فإن اتبعت سبيله كنت قرينه ، وستقولين : « يا ليت بيني وبينك بُعْدَ المشرقين فبئس القرين ولينظر أحوال السلف في متابعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فليقتد بهم وليختر طريقهم فقد روينا عن بعضهم انه قال : « لقد تقدمني قوم لو لم يجاوزوا بالوضوء الظفر ما تجاوزته » قلت هو إبراهيم النخعي وقال زين العابدين يوماً لابنه : « يا بني ، اتخذ لي ثوباً ألبسه عند قضاء الحاجة فإني رأيت الذباب يسقط على الشيء ثم يقع على الثوب ، ثم انتبه فقال : ما كان للنبي صلى الله عليه وسلم إلاّ ثوب واحد فتركه ، ثم ليعلم أن الصحابة

ما كان فيهم موسوس ولو كانت الوسوسة فضيلة لما ادخرها الله عن رسوله وصحابته،وهم خير الخلق وأفضلهم،ولو أدرك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الموسوسين لمقتهم،ولو أدركهم عمر رضي الله تعالى عنه لضربهم وأدّبهم، ولو أدركهم الصحابة لبدعوهم »[1] تجرع هـــذا الدواء ولربما تعافه نفسك في بداية الأمر ولكن به الشفاء إنشاء الله . . .

---

(1) اغاثة اللهفان ، ج ١ ، ص ١٣٥ .

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والحمد لله الذي أعانني على إنهاء هذا البحث الذي استغرق مني سنين بسبب كثرة مراجعته ، وفي كل مرة أراجعه أقع على أخطاء ، وتتبلور أفكار فأضيفها للبحث .

إن مداخل الشيطان أكثر مما تحصر في هذا البحث ولكنها محاولة أسأل الله أن تكون خالصة لوجهه الكريم وأن تكون خالية من الرواية الضعيفة والموضوعة صافية صفاء السنّة المطهرة .

وما أردت في هذه المحاولة أن أجعل القارىء في حالة يأس ، متردداً في أعماله ، غير واثق من خطاه ، ولكنني أؤمن أن الذين عقدوا البيعة مع الله على أن ينصروا دينه أو يموتوا في سبيله هم أحوج الناس لمعرفة دروب إبليس ومداخله ، ليخلصوا أنفسهم منها فينطلقون لاستئصال الباطل من أنفس الناس وبناء الحق مكانه .

ومع ذلك فهي محاولة لا تخلو من خطأ أو ضعف في بعض النقاط ولا أعني بذلك سد باب النقد ، إنما أردت أن أذكر حقيقة ينساها الكثيرون .

وأختم ما ابتدأت به في المقدمة بأنني على استعداد لتقبل كل نقد وملاحظة واقتراح ، ورحم الله امرىء أهداني عيوبي ، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

المراجع

أولاً ـ التفاسير :

١ ـ القرآن الكريم
٢ ـ تفسير القرآن العظيم ابن كثير
٣ ـ روح المعاني للألوسي
٤ ـ جامع البيان الطبري
٥ ـ فتح القدير الشوكاني
٦ ـ الجامع لأحكام القرآن القرطبي
٧ ـ التفسير القيم ابن القيم

ثانياً ـ الحديث :

١ ـ صحيح البخاري الإمام البخاري
٢ ـ صحيح مسلم الإمام مسلم
٣ ـ رياض الصالحين النووي
٤ ـ الترهيب والترغيب المنذري
٥ ـ صحيح الجامع الصغير الألباني
٦ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة الألباني
٧ ـ صحيح الكلم الطيب الألباني
٨ ـ الاذكار النووي

٩ — الفتح الباري	ابن حجر
١٠ — شرح مسلم	النووي
١١ — الأدب المفرد	البخاري

ثالثاً — الأخلاق والتربية :

١ — مدارج السالكين	ابن القيم
٢ — الفوائد	ابن القيم
٣ — عدة الصابرين	ابن القيم
٤ — الجواب الكافي	ابن القيم
٥ — إغاثة اللهفان	ابن القيم
٦ — زاد المعاد	ابن القيم
٧ — بدائع الفوائد	ابن القيم
٨ — تلبيس إبليس	ابن الجوزي
٩ — المدهش	ابن الجوزي
١٠ — العبودية	ابن تيمية
١١ — الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان	ابن تيمية
١٢ — مختصر منهاج القاصدين	ابن قدامة
١٣ — تهذيب موعظة المؤمنين	القاسمي
١٤ — روضة العقلاء	ابن حبان
١٥ — الزهد	أحمد بن حنبل
١٦ — حياة شيخ الإسلام	البيطار
١٧ — آدم	البهي الخولي
١٨ — أحكام في القرآن والسنة	عبد العظيم عيتاني ود. أحمد الغندور

دعوة :

١ ــ المنطلق	محمد أحمد الراشد
٢ ــ العوائق	محمد أحمد الراشد
٣ ــ مجموعة الرسائل	حسن البنا
٤ ــ في ظلال القرآن	سيد قطب

الفقه :

١ ــ فتاوى ابن تيمية	ابن تيمية
٢ ــ أعلام الموقعين	ابن القيم

الشعر :

١ ــ ديوان الشافعي	الشافعي
٢ ــ أغاني المعركة	وليد الأعظمي
٣ ــ المدهش	ابن الجوزي
٤ ــ شعراء الدعوة الإسلامية	أحمد الجدع

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الاستاذ محمد أحمد الراشد	٥
الفصل الأول : البداية	١٧
الاخبار بخلق جديد	٢١
الأمر بالسجود للمخلوق الجديد	٢٢
عصيان الشيطان الأمر	٢٢
الطرد لإبليس	٢٤
طلب الإنظار	٢٤
تفاصيل الخطة	٢٥
الاستثناء للبعض	٣١
إسكان آدم وزوجه الجنة	٣٢
التطبيق الأول للخطة	٣٢
الهبوط إلى الأرض	٣٥
الفصل الثاني : التحذير	٣٧
العبودية	٣٩
ينزع عنهما لباسهما	٤٤
الولاء	٤٦
اتباع الشيطان :	٤٩

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
تصيد العيوب	١١٢
تزيين الشيطان الأصغر	١١٤
تزيين الشيطان الأكبر	١١٦
الوسوسة :	١١٧
أ ــ المرتبة الأولى: شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله	١٢١
ب ــ المرتبة الثانية : شر البدعة	١٢١
جـ ــ المرتبة الثالثة : شر الكبائر على اختلاف انواعها	١٢١
د ــ المرتبة الرابعة : شر الصغائر	١٢٢
هـ ــ المرتبة الخامسة : شر الاشتغال بالمباحات	١٢٢
و ــ المرتبة السادسة : شر الاشتغال بالعمل المفضول عما هو أفضل منه	١٢٢
وذلك أضعف الإيمان	١٢٤
الفصل السادس : نتيجة أتباع الشيطان	١٢٧
الخسران	١٢٩
وقيضنا لهم	١٢٩
تؤزّهم أزاً	١٣٢
حقت عليهم الضلالة	١٣٣
الهداية إلى السعير	١٣٤
الحشر	١٣٦
الآن تندم	١٣٧
الوعد بالباطل	١٣٩
الاعتراف الأخير	١٤٢

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة